بولا هوكينز

بقعة عمياء

ترجمة سارة طه علام



بقعة عمياء

تأليف

بولا هوكينز

ترجمة

سارة طه علام

مراجعة

مصطفى محمد فؤاد



بقعة عمياء

Blind Spot

بولا هوكينز

Paula Hawkins

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣٨٠٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٢٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

المحتويات

الجزء الأول

يوليو

الفصل الأول

مات جيك بريتشارد.

كان جسده لا يزال دافئًا وهو ملقًى على الأرض، في المكان الذي يلتقي فيه المطبخ المفتوح بغرفة المعيشة، ودائرة من الدم الكثيف تحيط بجمجمته المحطمة كالهالة. كان لا يزال دافئًا، ولكنه مات بلا شك.

جثا رايان بيرس في السائل اللزج الذي يسيل من جروح جيك الفظيعة. أمسك هاتفه في يده اليمنى. وفي يده اليسرى، أمسك بجسم زجاجي ثقيل ملطخ بالدماء المتجمدة.

كان رايان لا يزال هناك، جاثيًا، يرتجف ووجهه شديد الشحوب، عندما اندفع المسعفون عبر الباب الأمامي. أدرك المسعفون على الفور أنه لا شيء يمكن فعله للرجل المُلقى على الأرض بعينيه الجامدتين ورأسه المهشم. بدلًا من ذلك، التفتوا إلى رايان.

«هل أصيب؟»، هكذا سألوه. «ما الذي حدث هنا بحق السماء؟ متى جئت؟ ما الذي رأيته وسمعته؟ هل كان هناك أي شخص آخر في المنزل؟» هزَّ رايان رأسه، لكنه لم يَقُل شيئًا. بدا أنه غير قادر على الكلام، غير قادر على استيعاب ما يحدث له.

تحدَّث المسعفون مع رايان بلطف. وبعناية كبيرة، ساعده أحدهم على الوقوف، وهو يأخذ الجسم الزجاجي من يد رايان ويضعه في كيسٍ بلاستيكي. لاحظ المسعف أنه كان يحمل عبارة منقوشة على قاعدته تقول: «جيك بريتشارد، أفضل كاتب سيناريو صاعد، ٢٠١٢».

سأل المسعف رايان: «هل هذا هو؟ هل هذا الرجل هو جيك بريتشارد؟» أومأ رايان برأسه إيجابًا. فأردف المسعف: «هل يمكنك أن تخبرنا أي شيء عنه؟ ما علاقتك به؟»

أخيرًا، تحدَّث رايان. «لم أقصد قَطُّ أن أوذيه»، هكذا قال متلعثمًا وأسنانه تصطك. وأضاف: «لا يمكن أن أوذيه أبدًا. إنه صديقي المقرب. إنه أخي.»

الفصل الثاني

لقد نامت إيدي لوقتٍ متأخر مرة أخرى.

أدركَت من زاوية الضوء الذي ينساب إلى غرفة المعيشة، وكذلك من الهدوء العميق الذي يسود الشقة، أن الساعة تجاوزت التاسعة. ما أجمل الاستلقاء على أريكة رايان الواسعة الوثيرة! ما أجمل النوم الهانئ الذي نعمت به، بلا أحلامٍ أو انزعاج!

هنا، في شقة رايان الجميلة رغم صغرها؛ إذ تتكوَّن من غرفة نوم واحدة، كانت إيدي تغفو ليلًا على ضوضاء المدينة: أصوات ضحكات المراهقين وصرخات السكارى، وأصوات صفارات الإنذار البعيدة وهدير السيارات المريح على الشارع المرصوف بالحصى. ضجيج الحركة والناس. وهو ما يختلف تمامًا عن عزلة منزلها الواقع على الجرف، الذي بلا أي صوت مسموع سوى صرخات النورس الملتاعة، وأصوات تحطُّم الأمواج اللانهائي على الصخور. كانت إيدي تنعم بنومٍ أفضل على أريكة رايان من نومها في فراش الزوجية، وكان هذا أمرًا مخزيًا ولكنه حقيقي في الوقت نفسه.

تَلَوَّت إيدي وهي تخرج من كيس النوم الخاص بها، وتوجَّهت إلى المطبخ حيث وضعت كبسولة قهوة في ماكينة صنع القهوة. ومن نافذة المطبخ، كان في إمكانها رؤية ما فوق قمم أشجار الزان في الحديقة المقابلة للمتنزه، والتل الذي يُطلق عليه اسم «مقعد آرثر» الذي يعلو فوقها. كان قلبها يقفز فرحًا في كل مرة تقف فيها هنا، محاطةً بالجمال والرفاهية. كان هذا عالمًا بعيدًا كل البعد عن المنزل المتهالك على الجرف الذي يضمها هي وزوجها، ومشكلاتهما المادية، وزواجهما الذي يتداعى ببطء.

عادت إيدي إلى الأريكة في غرفة المعيشة وهي تحمل كوب القهوة في يدها، وتفحصت هاتفها. لم تتلقَّ أيَّ مكالمات من جيك، ولا رسائل أيضًا. لم تعرف عنه أي أخبار منذ

أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة. كان صمته غير معتاد، ولكن أدركت إيدي، بوخزٍ شديدٍ من الذنب، أن هذا الصمت لا يزعجها، بل مرحب به. كانت قد سمعت ما فيه الكفاية منه مؤخرًا.

شربت قهوتها، وكانت في طريقها إلى الحمام للاستحمام عندما رنَّ جرس الباب. توقعت أن يكون رايان قد عاد من تريُّضه. لا بد أنه نسي أن يأخذ مفتاحه. ضغطت الزر لفتح الباب في الطابق السفلي وفتحت الباب الأمامي. وصاحت وهي تنظر إلى أسفل الدرج، متوقعة أن ترى رايان يصعد درجات السُّلَّم بخطواتٍ واسعة سريعة: «كان ذلك سريعًا.» ولكن لم يكن هو. كان شخصًا آخر. في الواقع، كانا شخصَين، رجلَين متجهمَين يرتديان زي الشرطة.

بدأ نبض إيدي يتسارع. «ما الذي يحدث؟» هكذا سألت، وهي تمدُّ يدها لتستند إلى إطار الباب. فقالا إن حادثًا قد وقع. لقد وقع في منزل الجرف. فسألتهما: «ما الذي حدث؟» انتابها شعور رهيب بالغثيان، كما لو كان هناك شيء زلق يتحرك داخل معدتها. ثم أضافت: «هل وقع شجار؟» نظر الشرطيَّان أحدهما إلى الآخر متفاجئَين.

أخذاها إلى الداخل، وأغلقا الباب خلفهما. أجلساها على الأريكة، ووقفا أمامها بينما كانا يشرحان لها سبب وجودهما. أخبراها أن زوجها قد هوجِم في منزلهما. وأنه تعرض لإصاباتٍ خطيرة في الرأس. وعلى الرغم من جهود المسعفين، لم يتمكنوا من إنقاذه. وقد أُعلِنَت وفاته في مكان الحادث. لم يكن واضحًا بعد ما حدث، ولكن يبدو أنها قد تكون محاولة سرقة فاشلة.

لم تقل إيدي شيئًا لبضع لحظات. كانت تستمع إلى صوتيهما، وهي تنتظر طوال هذا الوقت أن تستيقظ. غرست أظافرها في راحتيها، وقرصت الجلد على ظهر يديها، ومع ذلك لم يختفِ الشرطيان. لم تجلس مذعورة من كابوس كانت تراه. إنها لم تكن تحلم. كان هذا حقيقيًّا. كان هذا يحدث فعلًا.

«أين رايان؟» هكذا سألت إيدي عندما تمكَّنت من الكلام أخيرًا. «ماذا حدث لرايان؟»

تبادل الشرطيان نظرة أخرى. «رايان بيرس؟» هكذا سألها أحدهما، وقد عقد جبينه بعبوسٍ شديد. ثم أضاف: «إنه في قسم الشرطة. يقدِّم إفادته. هو الذي وجد الـ... وجد السيد بريتشارد. هو الذي اتصل بـ ٩٩٩.»

قالت إيدي: «إذن، هل هو بخير؟ هل رايان بخير؟»

الفصل الثالث

بقدر ما تتذكر إيدي، لقد كان ثلاثتهم معًا طوال الوقت تقريبًا: جيك ورايان وإيدي.

تعرَّفت عليهما في المدرسة، في ساسكس. كانت قد بلغت لتوِّها الحادية عشرة حين انتقلت مع عائلتها لتكون أقرب إلى المستشفى الذي كانت تُعالجَ فيه شقيقتها الصغيرة، جورجينا، من نوعٍ نادر من السرطان يصيب الأطفال. عندما عادت إيدي بذاكرتها إلى تلك الفترة، كانت الكلمة التي تتبادر إلى ذهنها هي «منبوذة». كان والداها دائمًا في مكان آخر، يثقلهما القلق تجاه شقيقتها الصغيرة التي لا حيلة لها، التي كانت تمتص كل حبهما كالإسفنجة. بينما كانت جورجينا ضعيفة، كان على إيدي أن تكون قوية. كان عليها أن تكون شجاعة. كان عليها أن تعتمد على نفسها.

وقد فعلت ذلك بالفعل. فقد وضعت إيدي مشاعر الهجر والإهمال جانبًا، كبتتها ولم تنشغل بالتفكير فيها، وواصلت العيش. كانت تركب دراجتها إلى المدرسة. وتُعِد عشاءها بنفسها عندما تعود إلى المنزل. حتى إنها كانت تأوي إلى الفراش وحدها في بعض الأحيان.

عندما بلغت الثانية عشرة، بدأت ارتياد مدرسة خاصة. بدت إيدي ناضجة مقارنة بالأطفال الآخرين؛ إذ كانت جادة، وهادئة ورصينة. لكن الفتيات الأخريات في صفها لم يَرَين أنها قوية أو معتمدة على نفسها، بل رأينها مملة ومغرورة. سخروا من جديتها، وكلما سخروا منها، ابتعدت إيدي عنهن أكثر. كانت تعاملهن بالازدراء الذي تستحقه البلهاوات المبتسمات أمثالهن. وسرعان ما وجدت نفسها وحيدة في المدرسة كما كانت في المنزل.

استمر هذا إلى يوم ما في أواخر الفصل الدراسي الصيفي، عندما انزلقت بسبب بعض الحصى في أثناء هبوطها من تلٍّ في طريقها إلى المنزل من المدرسة، وسقطت من على دراجتها. كانت تجلس وسط التراب، تلتقط قطع الحصى من الخدش في ركبتها، عندما جاء إليها ولدان يهرعان فوق قمة التل. كانت تعرفهما من المدرسة، كانا يكبرانها بسنة،

وكانا ولدَين طويلَين داكنَي البشرة، عزف الطلاب الآخرون عن مصادقتهما لسببٍ ما. ترجَّلا من دراجتَيهما، ومدَّ الولد الأطول منهما يده لمساعدتها على النهوض. ثم سألها: «هل أنتِ بخير؟» كانت ابتسامته مائلة، وكان لديه غمازة كبيرة وعميقة على الجانب الأيمن من وجهه. لقد كان أجمل شخص رأته إيدي على الإطلاق.

مدَّت إيدي يدها إليه. قال وهو يسحبها من دون عناء حتى وقفت على قدميها: «أنا رايان.»

قال الصبي الآخر، وقد جثا في الأرض المتربة لفحص إطار دراجتها، بهدوء: «أنا جيك.»

وكان هذا كل شيء، شعرت إيدي كأن صاعقة أصابت قلبها حتى كاد يتوقف من فرط الإعجاب. عرفت على الفور أنه الشخص المناسب. ومنذ ذلك اليوم، أصبح الثلاثة معًا، لا يفترقون.

الآن فقط لم يعُد هناك سوى اثنين: إيدي، التي كانت متكومة ككرة في زاوية على الأريكة، والأرض من حولها مليئة بالمناديل الورقية؛ ورايان، الذي كان يبلي السجادة وهو يخطو عليها ذهابًا وإيابًا. كان رايان في حالة هستيرية، عيناه محدقتان بفزع، مهتاجًا بشدة بحيث لا يمكنه الجلوس بجانبها، متوترًا بشدة ليفعل أي شيء سوى إعادة عرض المشهد المروع لذلك الصباح في رأسه ووصفه لها.

قال رايان: «كان هناك الكثير من الدماء يا إيدي، لم أستطع ... فعل أي شيء. حاولتُ ... حاولت إجراء الإنعاش القلبي الرئوي، لكنه كان بلا جدوى. أعني، بالطبع كان بلا جدوى؛ فقد كان ... ميتًا. ثم وجدت نفسي مغطًّى بالدماء وأنا جالس هناك فحسب، وقلت: إنه أخي. وبعد ذلك أرادوا أن يعرفوا لماذا كذبت، فقلت: لم أكذب. لم أكذب.» هزَّ رايان رأسه. وأردف قائلًا: «كنا نقولها طوال الوقت، أليس كذلك؟ إنه أخي. نحن مثل الأخوين. لا أعرف لماذا قلت ذلك. لا أعرف لماذا قلت ذلك حينئذٍ. يا إلهي، يا إيدي، كان هناك الكثير من الدماء ...»

أخذت إيدي نفسًا عميقًا، وقبضت يدَيها. ثم قالت: «رايان، من فضلك كفى ...»

قال وهو ينظر إليها لحظة: «أنا آسف. أنا آسف.» صمتَ لعشرين أو ربما ثلاثين ثانية، ثم عاود الحديث مرة أخرى. «انتظرتُ في السيارة بضع دقائق قبل أن أدخل. كنت أتصفَّح هاتفي فحسب، أتعرفين، أتصفح فحسب، مجرد ... لم أكن أفعل شيئًا حقًّا، فقط أضيع الوقت ... فقط أضيع الوقت ...»، وهنا تهدج صوته. كان سيعيد سرد ما قاله مرة

أخرى. كانت تعرف ذلك. كان سيقول: «يا ليتني دخلت مباشرة. يا ليتني ركلت الباب الأمامي بدلًا من الانتظار، بدلًا من السير على طول الطريق إلى الجانب الآخر من المنزل. يا ليتني فعلت هذا، يا ليتني فعلت ذاك.»

لقد أخبرها بقصته ما بدا كأنه عشرات المرات: كيف قاد السيارة إلى منزل جيك ليمارسا رياضة الجري الصباحية يوم الخميس. كيف وصل مبكرًا، لأن حركة المرور كانت أفضل من المعتاد؛ لذا قضى بعض الوقت في تصفُّح هاتفه في السيارة. عندما ذهب ليطرق الباب، ما كان هناك من مجيب؛ لذا سار حول المنزل إلى ناحية الجرف. ورأى أن الباب الزجاجي الجرار كان مفتوحًا، ولكنه لم يقلق، لأن جيك غالبًا ما كان يترك الباب مفتوحًا.

لكن في اللحظة التي دخل فيها المنزل، عرف أن هناك خطبًا ما. كان أحد كراسي غرفة الطعام ملقًى على جانبه، وكانت هناك رائحة معدنية غريبة في الهواء. أخبرها رايان كيف وجد جيك مُلقًى على وجهه على أرض المطبخ. حاول أن يقلبه، ونجح في ذلك بعد محاولة أو اثنتين.

قال رايان: «كانت الأرض مضرَّجة بالدماء. كانت هناك فوضى عارمة ...»

قالت إيدي مرة أخرى، وهي تمد يدها إليه: «من فضلك.» واستطردت والدموع تتدفق على وجهها: «من فضلك، كفى.»

لمس رايان أصابعها بأصابعه، وبدا أن هذا الاتصال أعاده إلى نفسه. جثا على ركبتَيه أمامها، وسحبها نحوه. كانت تشم رائحة العرق القديم التي يغطيها عطره وهو يقبِّل أعلى رأسها وخدها، ويهمس في شعرها قائلًا: «أنا آسف جدًّا يا إي. أنا آسف جدًّا.» ظل يحتضنها هكذا بضع دقائق، ثم وقف وذهب إلى المطبخ. أخذ زجاجة ويسكي وكأسَين وعاد ليجلس بجانبها. ثم سكب لهما شرابًا.

سأل بصوتٍ هادئ: «ماذا سنفعل من دونه؟»

هزَّت إيدي رأسها. وقالت: «أنا فقط لا أفهم. لا أفهم كيف يمكن أن يحدث هذا، كيف لشخصٍ أن ... لماذا قد يذهب أي شخص إلى هناك من الأساس؟ إن المنزل على بُعد أميال من أي مكان، ولم يكن هناك أي شيء يستحق السرقة أصلًا ...»

هزَّ رايان رأسه. وقال: «ما كان ينبغي أن يكون بمفرده»، فجفلت إيدي. ثم أكمل قائلًا: «لا، لم أقصد ...» بدا محطمًا وأمسك بيدها. «لم أقصد أنه كان عليكِ أن تكوني هناك. أقصد أنه كان عليَّ أن أكون هناك. كان يجب أن أصل إلى هناك في وقتٍ أبكر. إنني فقط أكره فكرة أنه كان بمفرده ... لقد كنت أنا وهو دائمًا معًا، أليس كذلك؟» عضَّت إيدي

شفتها. «الحمد لله أنكِ لم تكوني هناك يا إي. الحمد لله، وإلا ... لا أريد حتى أن أفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو كنتِ موجودة.»

شرب رايان كأسه، وسكب لنفسه كأسًا أخرى. وبينما انحنى ليعيد ملء كأس إيدي، ارتسم على وجهه تعبير غير مفهوم، فقد كان مزيجًا من الحزن، والشعور بالذنب أيضًا. أخذ رايان رشفة من شرابه. وقال: «أشعر كما لو أننا خُنَّاه.» لم يكن ينظر إليها، لكن إيدي كانت تعرف ما كان يفكر فيه. كان يفكر في كل الوقت الذي قضاه معها خلال الأسبوعَين الماضيَين منذ أن تركت جيك. كان الاثنان يجلسان جنبًا إلى جنبٍ على الأريكة ليلة بعد ليلة، يحتسيان النبيذ ويضحكان على بعض الهُراء الذي يشاهدانه على التليفزيون، وساقها ملتصقة بساقه، وعيناهما تلتقيان بين الحين والآخر، وكلاهما يشعران بالقلق يعتصر معدتيهما. وكلٌّ منهما يعلم — دون أن يقول أي شيء — أنها يمكن أن تكون مسألة وقت فحسب، قبل أن تتطور علاقتهما أكثر.

قالت إيدي: «إننا لم نرتكب أي خطأ.»

صبَّ رايان المزيد من الويسكي. أرادت أن تمد يدها لتمسك بيده، لكنها خافت فجأة من أنه قد يستاء منها. بل إنه قد يلومها على ما يشعران به الآن. اغرورقت عيناها بالدموع مرة أخرى، ولكن هذه المرة لم تكن حزنًا على جيك فحسب، بل على نفسها وعلى رايان أيضًا. كانت تفكر أنه، من الآن فصاعدًا، سيظل شبح جيك يقف بينهما دائمًا، وسيشكِّل غيابه اتهامًا مستمرًّا.

استفاقت إيدي مذعورة، وكان رأسها يؤلمها وفمها جافًّا. استغرقت ثانية لتتذكر، ليغمرها الرعب مرة أخرى. لقد مات جيك. مات زوجها. ولم تبقَ سوى ذكرى كل الأشياء الفظيعة التي قالتها له قبل أن تتركه.

كان ذلك قبل نحو أسبوعين. كان جيك وإيدي في المطبخ بمنزلهما الواقع على الجرف. كانت إيدي تُعِد العشاء، وكان جيك يعيد قراءة أحد كتبه الخاصة بكتابة السيناريو. كانا قد فتحا زجاجة نبيذ، وكانا يتسابقان على شربها حتى آخر قطرة، وكان كلاهما بالفعل يحتسيان كأسهما الثانية.

بينما كانت إيدي تقلِّب المرق، سمعت اهتزاز هاتفها. ألقت نظرة من فوق كتفها: كان الهاتف على طاولة المطبخ، على بُعد نحو قدمَين من مِرفق جيك، بعيدًا عنه بما يكفي بحيث لا يتمكَّن من قراءة الشاشة. رأته إيدي ينظر إليه قبل أن يعود إلى كتابه. وبعد نحو ثلاثين ثانية، اهتزَّ الهاتف مرة أخرى. مدَّت إيدي يدها بسرعة لتلتقطه.

شعرت بنظرة جيك مثبتة عليها وهي تقرأ الرسائل.

سأل جيك، وهو يعود بنظره إلى كتابه: «من المرسِل؟»

أعرضت إيدي عنه، وانشغلت بالمرق. صمتت لحظة قبل أن ترد قائلة: «لارا.»

قال بنبرة فاترة: «حقًّا؟ ماذا تريد؟»

صمتت إيدي مرة أخرى. ثم قالت: «إنها تفكر في دخول هذا الماراثون الفائق الذي تحدثت عنه، كما تعرف، سباق «جريت جلين» أو ... أيًّا كان اسمه.» واستدارت لمواجهة جيك. وأردفت قائلة: «إنها تريد أن تعرف إذا كنت سأتدرب معها أم لا.»

رفع جيك نظره من كتابه. وقال: «هل تريد أن تعرف إذا كنتِ ستتدربين معها لسباق جريت جلين أو أيًّا كان اسمه؟ هل هذا ما تقوله في الرسالة؟»

أطلقت إيدي تنهيدة كبيرة. وقالت: «قالت سباق الجري الطويل فحسب. لقد تحدَّثنا عنه من قبل. لا أستطيع تذكُّر اسمه. يا إلهي! هل تريد قراءة الرسالة؟ هل هذا ما تريده يا جيك؟» مدَّت إيدي يدها ممسكة بهاتفها. كانت تعض بأسنانها على شفتها السفلية، وتأمل بشدة أن يشيح بنظره ويعود إلى قراءة كتابه. كانت تدعو أن تمنعه شدة الحرج والكبرياء من أن يأخذ الهاتف فعلًا ويقرأ الرسائل ويرى أنها لم تكن من لارا على الإطلاق. بل كانت من رايان، الذي كان يسأل عن حالها وما إذا كانت ترغب في أن يلتقيا لتناول القهوة خلال عطلة نهاية الأسبوع.

لكن جيك لم يكن محرجًا، وكان قد فقدَ كبرياءه تمامًا. ومدَّ يده ليأخذ الهاتف.

وقال: «نعم. دعينا نُلقِ نظرة.»

انتزعت إيدي الهاتف مرة أخرى كما لو أنها احترقت. وصرخت قائلة: «يا إلهي!» كان يستحيل أن تقول الحقيقة. لقد كذبت لأنها كانت تعرف أنه سيبالغ في رد فعله تجاه تلقِّيها رسائل من رايان، لأنه يبالغ في رد فعله تجاه كل شيء هذه الأيام. لقد كذبت لأنها كانت تأمل في قضاء مساء هادئ فحسب. والآن، صار الهجوم هو خط دفاعها الوحيد. أكملت قائلة: «هذا أمر سخيف يا جيك! إنك مجنون بالشك! هل تريد قراءة رسائل هاتفي؟ أنت شديد الغرابة.»

صرخ بدوره قائلًا: «أنتِ من قدَّمتِ الهاتف إليَّ!»

فأردفت قائلة: «كنت أُثْبِت وجهة نظري. كنت أحاول إظهار مدى جنونك. لن أطلب منك أبدًا أن أرى رسائلك!» ثم دسَّت هاتفها في جيبها الخلفي، وعادت إلى الموقد وبدأت تقلِّب الطعام بغضب. «هل لديك أي فكرة عما يعنيه العيش مع شخص لا يثق بك؟»

سمعت جلبة كرسي يسقط خلفها، وجيك يترنَّح واقفًا على قدميه. قال جيك بصوتٍ خفيض وحاد: «هل لديكِ أي فكرة عما يعنيه الشعور بأن الشخص الذي تحبينه يكذب عليك طوال الوقت؟ أن تراقبي وجهه في كل مرة يتلقَّى فيها رسالة وأنتِ تعلمين أنه يخفي شيئًا عنكِ؟ ألَّا تعرفي أبدًا أين كان، وماذا كان يفعل ...»

«يا إلهي!» هكذا قالت إيدي واستدارت لتواجهه، ومرق الطماطم يتناثر في كل مكان على الأرض، بينما كانت تلوح بالملعقة الخشبية. «هذا أمر لا يطاق. أكاد أكون سجينة في هذا المنزل اللعين، وأنت تشتكي من أنك لا تعرف أين أنا طوال اليوم؟ ما الذي أصابك؟ من أين تأتي بهذه الأفكار الجنونية؟»

تصاعدت حدة الجدال عند هذه النقطة. وسار في مساراته المعتادة، وهو نفس نوع الجدالات التي كانا يخوضانها منذ أشهر. إلا أن هذا الجدال كان هو الأسوأ حتى الآن. اتَّهمها جيك بالكذب عليه، وبخيانته. أما إيدي فدافعت بشراسة، ووجَّهت إليه السباب واللعنات، وقالت كل الأشياء الفظيعة التي كانت تفكر فيها في أكثر اللحظات سوءًا وشرًّا؛ كل الأشياء التي لم يكن ينبغي أن تقولها قَطُّ، قالت إنه مجنون، ومصاب بجنون الشك، وأناني. وفاشل. وأخبرته كم ندمت على قضاء كل تلك السنوات في دعمه في مشروعات كتابته. وأوضحت له كم كانت تكره منزل الجرف، وكم تمنَّت لو لم ينتقلا إليه قطُّ، وكيف أن كل ما أرادت فعله هو الهرب.

أجاب جيك: «لماذا لا تذهبين إذن يا إيدي؟ لماذا لا تغادرين فحسب؟ هيا! اهرعي إلى رايان كما تفعلين دائمًا.»

وهو ما فعلته بالفعل.

الفصل الرابع

أيقظ صوت ماكينة القهوة إيدي للمرة الثانية. ومرة أخرى، حظيت بلحظة من الشعور بالسلام، أعقبتها نوبة رهيبة من الحزن. وبينما كانت تمد يدها لتأخذ علبة المناديل الورقية الموضوعة على طاولة القهوة، نظرت إلى أعلى. فالتقت عيناها بعينَي رايان. كان في المطبخ، يرتدي بذلة وقميصًا أبيض مكويًّا، وربطة عنق مفكوكة تتدلى حول عنقه.

سألته إيدي: «هل ستذهب؟»

بدا متحيرًا. وقال: «سأذهب إلى العمل يا إيدي.»

سحبت نفسها، وجلست في وضعٍ مستقيم، وقالت وهي تلفُّ كيس نومها حولها: «لكن ... اليوم؟ لا يمكنك الذهاب. أعني ... ماذا عن الإجازة المخصصة للأسباب الإنسانية؟»

لوى رايان شفتيه. وقال: «الإجازة المخصصة للأسباب الإنسانية؟ يا إلهي يا إيدي، تكونين ساذجة في بعض الأحيان.» التفتَ بعيدًا عنها. وقال: «لا يوجد شيء اسمه إجازة مخصصة لأسبابٍ إنسانية في القطاع المالي.»

مسحت إيدي دموعها وهي تشعر بغصة في حلقها. ونظرت حولها إلى الفوضى التي سبَّبتها في غرفة معيشة رايان التي عادة ما تكون نظيفة؛ الأكواب الفارغة والمناديل الورقية المجعدة، وبنطالها الجينز المُلقى بإهمالٍ على الأرض. وأدركت أنه قد لا يريدها في منزله. وبعد لحظات، خرج من المطبخ حاملًا كوبَين من القهوة. وضع كوبًا على الطاولة أمامها وقبَّلها برقة على رأسها.

وقال: «أنا آسف يا إي. لم يكن يجب أن أنفعل. لا أريد الذهاب، لكني فاتني الأمس بأكمله وهناك عملاء لا بد من تولي أمرهم. إذا لم أذهب، سيتولى شخص آخر زمام الأمور، وهذا يعني أنني سأخسر. لا أستطيع تحمُّل ذلك. هذا هو حال الأمور.»

جاءت الشرطة لاصطحاب إيدي في وقت الظهيرة. رجلان آخران ومختلفان هذه المرة يرتديان الزي الرسمي، وامرأة ترتدي ملابس عادية تُدعى نيتا بادامي، قالت إنها ضابطة اتصال عائلي. وقالت لها: «أي أسئلة لديكِ، أي شيء تحتاجين إليه، تعالَي إليَّ، حسنًا؟» كانت نيتا شابة، ربما في أوائل الثلاثينيات من عمرها، صغيرة الحجم ووجهها ذو تعبير حاد خفَّف من وقعه رموشها الطويلة وصوتها المريح.

أوضحت نيتا أن الشرطة تحتاج إلى اصطحاب إيدي إلى منزل الجرف؛ كي تحدِّد ما إذا كان هناك أي شيء مفقود. لم تعثر الشرطة على كمبيوتر محمول أو هاتف محمول في مسرح الجريمة؛ لذا كانوا متأكدين تمامًا أنهما سُرقا. لكنهم تساءلوا ما إذا كان هناك أي شيء آخر، أي شيء مميز، قد يساعدهم في تعقب القاتل.

لم تتمكَّن إيدي من فهم المغزى وراء ذلك. قالت: «ليس لدينا أي شيء يستحق السرقة. سترون. الأثاث كله رديء، معظمه مستعمل ... لم نكن نحتفظ بالنقود في المنزل، ولا نمتلك أيَّ لوحات فنية ثمينة على الجدران. لا أفهم لماذا من الضروري أن أقطع كل هذه المسافة إلى هناك.»

ابتسمت لها نيتا ابتسامة مطمئنة. وقالت: «أعرف أنكِ لا تريدين الذهاب إلى هناك يا إيدي. أتفهَّم ذلك. لو كنت في مكانك، لما أردت الذهاب أيضًا. لا شك لديَّ أنها ستكون تجربة مروعة، ولكنني سأكون معك في كل خطوة. هناك احتمال أن هذا قد يكون مفيدًا لنا؛ لأنك لا تعرفين أبدًا ما الذي قد يأخذه اللص. إذا أخذ متعلقًا شخصيًّا، فقد يساعدنا ذلك في تعقُّبه.»

لم يكن هناك جدوى من الجدال. رضخت إيدي لأن تُقاد إلى السيارة. جلست صامتة ومتجهمة في المقعد الخلفي، وأخذت تحدق من النافذة. ارتجفت بينما كانوا يتجهون بالسيارة إلى الجسر، وأضواؤه تومض في الضباب.

قالت نيتا، وقد بدت لأول مرة غير واثقة بنفسها بعض الشيء: «هل يمكنك أن تخبريني متى تركتِ منزلك؟»

عانقت إيدي نفسها، وتكوَّرت حول نفسها بالقرب من باب السيارة. ثم قالت بهدوء: «منذ أسبوعين. لقد تشاجرنا.» وعندما استدارت لتواجه نيتا، التقت عينها بعين السائق في المرآة الخلفية، إذ كان يراقبها بتمعُّن. تابعت إيدي قائلة: «أنا صادقة، لأنه لا يوجد سبب يمنعني من ذلك. كنا نمرُّ بفترة صعبة، نتشاجر فيها كثيرًا.»

سألتها نيتا: «هل كان هناك سبب معين للشجارات؟»

تنهدت إيدي. ثم قالت: «المال، في الغالب. كنت أعمل كمساعدة تنفيذية في شركة كبيرة في لندن. كنت أتقاضى راتبًا جيدًا. ولكن منذ أن جئنا إلى هنا قبل عامين، لم أتمكَّن من العثور على أي عمل دائم. كنت أعمل مساعدةً عبر الإنترنت فحسب لقاء راتب زهيد.»

سألتها نيتا مرة أخرى: «وماذا عن جيك؟ كان يكتب سيناريوهات للتليفزيون، أليس كذلك؟»

هزَّت إيدي كتفَيها. وقالت: «أجل. بين الحين والآخر. إنها مهنة يصعب كسب المال منها بانتظام، كما تعرفين. كان دخلي هو الذي كنا نعتمد عليه.» فرَكت إيدي يديها في حجرها. وأردفت قائلة: «كان لدى جيك بعض الأفكار التي قوبلت بالرفض. وقد تضايق بشدة بسبب ذلك. وأصيب بإحباطٍ شديد.» صمتت للحظة. ثم أكملت قائلة: «لقد تشاجرنا حول المنزل أيضًا.»

سألتها نيتا: «ماذا عن المنزل؟»

أجابت إيدي: «أكره العيش هناك.»

«حقًّا؟» بدت نيتا متفاجئة. «ولكن ذلك الجزء من الساحل جميل جدًّا ...»

ردَّت إيدي: «ولكن لا يوجد شيء هناك. لا شيء يحدث، وكنت عالقة فيه. محاصرة. فكما ترين لا أستطيع القيادة، لأنني أعاني من مشكلة في عيني. أعاني من وجود بقع عمياء.»

سأل السائق وقد بدت عليه الحيرة: «ومع ذلك قررتما شراء منزل في مكان ناءٍ؟»

أجابت إيدي: «لم نشترِه. لقد ورثناه من والد جيك. لم أرَ المنزل مطلقًا قبل أن ننتقل إليه. أخبرني جيك أنه في إدنبرة.» ضحكت إيدي ضحكة قصيرة ومريرة. وقالت: «كنت متحمسة جدًّا! وعندما وصلنا إلى هنا، اكتشفت أنه ليس في إدنبرة على الإطلاق. إنه يبعد أكثر من ساعة بالسيارة عن المدينة، إذا كنت تستطيع القيادة بالطبع. أما إذا كنت لا تستطيع، فيمكن أن تستقل حافلة أو قطارًا، وكلاهما يستغرقان وقتًا طويلًا. ويقع المنزل على جرفٍ بلا جيران وتحتاج إلى السير مسافة تستغرق خمسًا وعشرين دقيقة لشراء الحليب.» توقفت عن الكلام لحظة، وأخذت نفسًا عميقًا مرتعشًا. وأكملت قائلة: «في الحقيقة أنا أكره هذا المكان. أردت بيعه واستخدام المال لشراء منزل آخر، منزل في المدينة. قال جيك إنني أنانية كوني أتوقع منه أن يتخلص من منزل والده.»

اهتزَّ هاتف إيدي في جيب معطفها. أخرجته وفحصت الشاشة، وكانت لارا تتصل.

سألتها نيتا وهي تلقي نظرة على شاشة الهاتف: «هل تحتاجين إلى الرد على هذا الاتصال؟»

هزَّت إيدي رأسها نفيًا. وقالت: «إنها صديقة لي. لم أخبرها حتى الآن. أنا تقريبًا لم أخبر أحدًا بالأمر حتى الآن. لا يعرف الخبر سوى إخوة جيك غير الأشقاء وعائلتي، أما باقي الناس — الأصدقاء، وزملاء العمل القدامى — فأنا لا أعرف حتى كيف أخبرهم بما حدث.»

مدَّت نيتا يدها نحو يد إيدي وضغطت عليها سريعًا. وقالت: «يمكننا الحديث عن ذلك إذا أردتِ. يمكنني مساعدتكِ.» صمتت لحظة قبل أن تضيف: «إنني أفكر في هذا فقط لأنك ذكرتِ إخوة جيك غير الأشقاء. لكنني كنت أتساءل إذا كنت تعرفين يا إيدي، لماذا أخبر رايان بيرس المسعفين أنه شقيق جيك؟ هل كنت تعرفين أنه قال ذلك؟»

تفحصت إيدي وجه نيتا. وقالت بهدوء: «أجل. كنت أعرف. لم تكن كذبة. إذا كان هذا ما تظنين. كان يعني ذلك ...»، وتحشرج صوتها وأكملت: «كان يعنيه بشكلٍ إيجابي. كانا يتحدثان بهذه الطريقة في بعض الأحيان، عن كونهما أقرب من الأصدقاء، وأنهما شقيقان.»

أومأت نيتا رأسها وهي تفكر. نظرت من النافذة للحظة، ثم التفتت مرة أخرى إلى إيدي. وقالت: «الشيء الآخر الذي قاله هو أنه لم يكن يقصد قَطُّ إيذاء جيك. هل لديك أي فكرة لماذا قال ذلك؟»

نظرت إيدي إلى يدَيها. وهزَّت كتفَيها. وقالت: «أعتقد لأنه ... بسماحه لي بالبقاء في منزله، بدا كأنه ينحاز إلى صفي. وهذا من شأنه أن يضايق جيك. كلانا كان يعرف ذلك، لكن رايان صديقي أيضًا؛ لذا ...»، وسكتت. ثم أضافت: «كان الأمر معقدًا.»

تباطأت السيارة عندما اقتربوا من المنعطف المؤدي إلى الطريق الساحلي. شعرت إيدي بتقلُّب في معدتها. مدَّت يدها إلى أعلى وأمسكت بالمقبض الموجود في السقف عندما انحرفت السيارة يمينًا. شعرت أن وجهها ساخن، وأنفاسها لاهثة. كانت تشعر بأن نظر نيتا، والسائق أيضًا، مثبت عليها، كلاهما يراقبانها وهم يتجهون نحو منزلها. كلاهما يتطلعان إلى رؤية ما ستفعله، وكيف سيكون رد فعلها. كان الأمر يشبه كونها حيوانًا محبوسًا في قفص.

سألتها نيتا: «هل تحوَّلت شجاراتك مع جيك إلى عنفٍ جسدي يا إيدي؟»

حدقت إيدي إليها. وقالت: «ماذا؟ لا! هل تقصدين ... انتظري، إلامَ تُلَمحين؟»

ردَّت نيتا: «لا أقصد أنك فعلتِ أي شيء خاطئ. إننا نعلم من كاميرات المراقبة في مبنى رايان أنك لم تغادري الشقة ذلك الصباح؛ لذا نعلم أنكِ لم تفعلي هذا. لكننا كنا نتساءل عما إذا كان من الممكن أن يكون شخص يهتم لأمرك، ويعتقد أنك في خطر، قد تصرف لحمايتك. ربما لم يكن يقصد أن تصل الأمور إلى هذا الحد البعيد ...»

كادت إيدي تضحك وقالت: «أتقصدين رايان؟ إنك لم تكوني تنصتين إليَّ، أليس كذلك؟ كان رايان يحب جيك، يحبه كأخ. وأجل، كنت أنا وجيك نمر بفترة صعبة، لكنه لم يكن ليمد يده عليَّ أبدًا. لم يكن من هذا النوع من الرجال.»

سألتها نيتا: «أي نوع من الرجال كان؟»

ابتسمت إيدي لها. وأجابت: «كان مخلصًا. كان يرى الخير في الناس. لقد رآه فيَّ. كان يحبني كثيرًا.» وبدأت الدموع تنهمر بغزارة على وجهها. أخرجت نيتا علبة مناديل ورقية من حقيبتها وأعطتها منديلًا. أكملت إيدي: «لم يكن يحب أن أكون أنا المُعيلة، كان هذا يزعجه دائمًا. أراد أن يعتني بي؛ كان من الطراز القديم في هذا الشأن. كان عنيدًا. وأبيًّا.» مخطت أنفها. وأردفت قائلة: «يمكن وصفه بأنه كان حالمًا بعض الشيء. كان خياليًّا.»

مسحت إيدي عينيها، وأخذت نفسًا عميقًا. وقالت للسائق: «عليك أن تبطئ السرعة الآن، فالمنعطف قادم.» عندما انحرفت السيارة عن الطريق إلى مسارٍ غير ممهد، بدأت ضربات قلب إيدي تتزايد. وقالت: «إنه بالقرب من هنا.» كانت تمسك بمقبض سقف السيارة مرة أخرى، ورأسها محني وذقنها منكمش نحو صدرها.

سألتها نيتا: «هل أنت بخيرٍ يا إيدي؟ هل تشعرين أنك على ما يرام؟»

همست إيدي قائلة: «أنا بخير.» كانوا يمرُّون لتوِّهم بالنقطة التي أقلَّها منها رايان ليلة الشجار. كانت قد أرسلت إليه رسالة نصية بينما كانت تحزم حقيبتها، تقول: «من فضلك تعال الآن، لا أستطيع البقاء هنا.» وصل رايان في أقل من ساعة؛ ولا بد أنه قد تجاوز الحد الأقصى للسرعة المحددة طوال الطريق. وعندما استقلت سيارته، استدارت لتنظر إلى المنزل، فرأت جيك يقف عند المدخل، يراقبها. كان الضوء خلفه، فلم تتمكَّن من رؤية وجهه، ولكنها تمكَّنت من تخيُّله الآن، قد ارتسم على قسماته الألم والجرح. كانت تلك هي آخر مرة رأته فيها.

الفصل الخامس

في المرة الأولى التي رأت فيها إيدي المنزل الواقع على الجرف، قالت إنه يبدو كمرحاضٍ عام.

إذا تخيلت منزلًا على ساحل فايف، قد تتوقع كوخًا غريبًا لأحد صيادي السمك، أو منزلًا مبهجًا وحديثًا مصنوعًا من الخشب وحجر الإردواز. كان منزل والد جيك مختلفًا تمامًا، فقد أُنشئ في السبعينيات من القرن الماضي، وكان مبنًى منخفضًا وعاديًّا للغاية إلى درجة أنك بالكاد ستلاحظه عندما تقترب منه على الطريق المتفرع من الطريق الرئيسي. لم يكن هناك نوافذ على جانب المنزل الذي يطل على اليابسة، فقط جدار من الطوب العادي وباب أمامي خشبي. لم يكن قبيحًا بقدر ما كان كئيبًا تمامًا.

ستعتقد هذا حتى تدخل المنزل نفسه. صحيح أنك لن تجده فخمًا من الداخل؛ فهو متهالك وبالٍ، ولكن الجزء الخلفي من المنزل كان مصنوعًا بالكامل من الزجاج. ونظرًا إلى كونه يقع على مسافة لا تزيد على عشرين مترًا من حافة الجرف، فعندما تدخله سترى البحر يمتد إلى الأفق.

ولكن اليوم، لم يجذب البحر نظر إيدي، بل بقعة داكنة تركت علامة على الأرضية الخرسانية المصقولة. كانت هذه البقعة عند النقطة التي تلتقي فيها غرفة المعيشة المفتوحة بالمطبخ. تقدَّمت نيتا بسرعة، ووقفت أمامها وحجبت عنها الرؤية. ثم قالت: «إذا كنت في حاجة في أي وقت إلى أخذ قسط من الراحة، فقط أعلميني.»

أومأت إليها إيدي إيماءة مقتضبة. وقالت: «دعينا فقط نَنتهِ من هذا الأمر.»

توجهت إيدي ونيتا نحو المطبخ، وكلٌّ منهما ترتدي بذلتها الواقية وغطاء حذائها البلاستيكي وتشعر بالغرابة. تجاوزتا البقعة البنية الرهيبة، ووقفتا أسفل كوة المطبخ، التي كانت في السابق سِمة مميزة، ولكنها أصبحت الآن مشوَّهة بعشٍّ ضخم لطائر نورس فضي. نظرت إيدي حولها، وهي تفتح وتغلق الأدراج والخزانات، وتفحص الثلاجة. بدا كل

شيء طبيعيًّا. دخلت إلى المساحة الرئيسية لغرفة المعيشة. في مقابل الجدار الزجاجي، الذي كانت ألواحه ملطَّخة بالملح والأوساخ، كانت هناك مِدفأة حجرية قبيحة، وأمامها أريكة برتقالية رثة. كانت السجاجيد القديمة البالية مبعثرة على الأرض، والرفوف التي تحيط بالمدفأة تحتوي على بضع عشرات من الكتب ذات الأغلفة الورقية وبعض أقراص الدي في دي.

حدقت إيدي إلى الرفوف ثم استدارت لتواجه النوافذ. أشارت نحو الباب الجرار المؤدي إلى الحديقة، والذي كان مفتوحًا. وقالت: «هل هذا هو المكان الذي ... دخلوا منه؟»

أجابت نيتا: «هذا ما نفترضه. وفقًا لرايان، كان الباب مفتوحًا عندما وصل.»

أومأت إيدي. وقالت: «كان جيك يترك الباب مفتوحًا طوال الوقت. كان يحب سماع صوت البحر. وقال ...»، وارتعش صوتها قليلًا وأردفت: «قال إن المكان آمن تمامًا؛ لأنه لم يكن هناك أي شخص هنا مطلقًا. لم يكن من الممكن أن يمرَّ أي شخص من هنا.»

اقتربت نيتا بضع خطوات من الباب. وقالت وهي تنظر إلى رقعة الحديقة القبيحة خارج المنزل: «وماذا عن الطريق الساحلي؟ ألا يوجد الكثير من المارة في هذا الطريق؟»

أومأت إيدي. وقالت: «هناك الكثير منهم، ولكن ليس عند هذا الجانب من المنزل. على بُعد قرابة خمسمائة ياردة جنوبًا، سقط جزء كبير من الجرف في البحر منذ وقت ليس ببعيدٍ؛ لذا جرى تحويل المسار الآن. يمتد الطريق داخل اليابسة قليلًا، خلف المنزل، في اتجاه الطريق الرئيسي. يمكنك رؤية المنزل من هناك، لكنك ربما لن تلاحظيه إلا إذا كنتِ تبحثين عنه.»

اتخذت نيتا خطوة إلى الأمام، حتى التصق أنفها بالزجاج تقريبًا. وقالت: «هل المكان خطير هناك؟»

أومأت إيدي مرة أخرى. وقالت: «عندما ينحسر المد يمكنك النزول إلى الشاطئ — هناك، على اليمين، يمكنك رؤية المسار. لكن عليكِ الحذر، فالمد يأتي بسرعة. وكلما حدثت عاصفة، تآكل جزء أكبر من الجرف. ولن يمرَّ وقت طويل قبل أن يسقط هذا المكان بأكمله في البحر.»

تبعت نيتا إيدي بطول ممر يؤدي إلى غرفة النوم الإضافية، التي تحتوي على أريكة سرير قديمة ومكتب صغير من خشب الصنوبر موضوع في الزاوية. سألتها نيتا: «هل هذا هو المكتب؟»

ردَّت إيدي: «هذه هي غرفة كتابة جيك.» وأضافت وهي تتقدَّم بضع خطوات إلى الأمام وتضع يديها على ظهر الكرسي الفارغ: «ولكن لأكون صادقة، في الغالب كان يأتي

هنا ليلعب على جهاز الإكس بوكس.» التفتت إلى نيتا بابتسامة حزينة، ومسحت بفظاظة دمعة من على خدها بظهر يدها. وقالت وهي تشير إلى جهاز الإكس بوكس: «إنه لا يزال موجودًا هنا. الشيء الوحيد المفقود هو الكمبيوتر المحمول الخاص به.»

كانت غرفة النوم الرئيسية تقع في نهاية الممر، وهي مزودة بسريرٍ مزدوج، وطاولة على كلا جانبيه وكرسي قديم بذراعين مكدس بتلٍّ من الملابس. بدت الغرفة أبرد من بقية المنزل. جلست إيدي على حافة السرير غير المرتب وسحبت الغطاء نحوها، وضمته إلى صدرها واستنشقت رائحته.

وقفت نيتا بهدوء في المدخل، تشاهد إيدي وهي تبكي. بعد فترة صمت احترامًا لحزنها، طلبت نيتا من إيدي النظر حول الغرفة مرة أخرى، والذهاب إلى الحمام، وتفقد خزانات الملابس.

صاحت إيدي وهي تنظر إليها ببؤس: «لا يوجد شيء يستحق السرقة! لم يكن لدينا أي شيء، لقد كنا مفلسَين. ألا يمكنك تبين ذلك من حالة هذا المكان؟ ليس لدينا أي قطع فنية، باستثناء المطبوعات الرخيصة المعلقة على الجدران. ليس لدينا نظام صوتي غالي الثمن ... كل شيء قديم ورديء ومستعمل ...»

«ماذا عن المجوهرات؟»

رفعت إيدي يدها لتظهر لنيتا خاتم زواجها. وقالت: «هذا كل شيء.»

أومأت نيتا برأسها. وقالت: «ولكن جيك لم يكن يرتدي خاتم زواج، أليس كذلك؟»

عبست إيدي في وجهها. وأجابت: «بلى، كان يرتديه. خاتمه مطابق للذي أرتديه، ولكن محفور عليه اسمي من الداخل، كما أن خاتمي محفور عليه اسمه من الداخل.» خلعته إيدي من إصبعها ورفعته لتراه نيتا.

في طريق عودتهما عبر غرفة المعيشة، توقفت إيدي فجأة أمام المدفأة. كانت تنظر إلى مكان فارغ على رف المدفأة بين شمعدان نحاسي وصورة بالأبيض والأسود موضوعة في إطار. قالت وهي تشير إلى الرف الفارغ: «الجائزة. الجائزة التي نالها جيك عن كتابة السيناريو، إنه يضعها هناك.» التفتت لتنظر إلى نيتا. وأكملت قائلة: «اسمه مكتوب عليها. وهذا يجعلها مميزة جدًّا، أليس كذلك؟»

الفصل السادس

وصلت نيتا مبكرًا.

فتحت إيدي الباب الأمامي وهي ملفوفة بمنشفة وتقطر ماءً على الأرضية الباركيه. اعترضت قائلة: «لقد قلتِ العاشرة!»، وأفسحت الطريق لتدخل الضابطة. وأردفت قائلة: «إنها حتى لم تتجاوز التاسعة والنصف بعد.»

ابتسمت نيتا لها. وقالت: «أنا آسفة»، ولكن إيدي كانت تشعر بأنها ليست آسفة على الإطلاق. كانت تشك في أن نيتا قد وصلت مبكرًا عن قصد. ولكن لماذا؟ لتفاجئها؟ بعد ستة أيام من وفاة جيك، كانت إيدي تعاني الأرق ولا تزال تعاني الصدمة؛ فلم تعد متأكدة متى تفكر بوضوحٍ، ومتى تكون مهووسة بالشك.

تركت نيتا في المطبخ تحضِّر القهوة بينما ذهبت إلى الحمام لترتدي ملابسها. ولكن عندما خرجت، سمعت ضجيجًا في نهاية الممر، في غرفة النوم. سارت بهدوء عبر الردهة المغطاة بالسجاد الكثيف وفتحت الباب. كانت نيتا على الجانب الآخر من سرير رايان، تنظر إلى إطار الصورة الموجود على الطاولة المجاورة للسرير.

قالت إيدي: «لا أعتقد أنكِ يجب أن تكوني هنا.»

التفتت نيتا نحوها. وقالت وهي تبتسم بلطفٍ: «آسفة. كنت فضولية فحسب.»

عادتا إلى غرفة المعيشة، وجلستا متقابلتين على طرفَي الأريكة.

سألتها إيدي: «ما الذي أردت أن تتحدَّثي معي عنه؟»

لكن لم يبدُ أن نيتا كانت منتبهة لسؤال إيدي. كانت تنظر حول الغرفة كما لو كانت تراها لأول مرة. ثم قالت: «هذه شقة جميلة حقًّا، أليس كذلك؟» وابتسمت لإيدي مرة أخرى. ثم أضافت: «لقد سرتُ على هذا الطريق عدة مرات، ونظرت إلى هذه الشقق وقلت في

نفسي: يا لها من أماكن رائعة للعيش فيها!» توقفت لحظة عن الكلام. ثم أردفت: «أعتقد أنها باهظة الثمن، أليس كذلك؟»

أومأت إيدي برأسها. ثم قالت: «أجل، أعتقد ذلك. رايان يعمل في مجال رءوس الأموال المخاطرة. ولقد أبلى بلاءً جيدًا جدًّا فيه». تابعت نظرات نيتا وهي تتنقل في جميع أنحاء الغرفة، وتأمَّلت الكراسي المريحة ذات الألوان الزاهية، والستائر الحريرية المعلقة على النوافذ، والأعمال الفنية الموجودة على الجدران. وسمعت نفسها تقول: «كما أنه من عائلة ثرية. لقد كان دائمًا يحب الأشياء الجميلة.»

قالت نيتا وهي تأخذ رشفة من قهوتها: «هذا واضح. هل جعل هذا الأمور بعض الشيء ... حسنًا، لا أعرف، هل جعل هذا الأمور بعض الشيء «صعبة» بينكما؟ كوْن رايان ثريًّا جدًّا، بينما كنت أنتِ وجيك تكافحان للعيش؟»

«ليس تمامًا»، هكذا قالت إيدي وهي تدير وجهها بعيدًا عن نيتا للحظة. تذكرت اليوم الذي زارت فيه هي وجيك رايان لأول مرة في هذه الشقة، والنظرة على وجه جيك عندما رأى مدى انبهارها بها. وأكملت قائلة: «لم نتحدث فعليًّا عن هذا النوع من الأمور.»

أخذت نيتا رشفة أخرى، ثم وضعت الكوب مرة أخرى على الطاولة، واستدارت لتواجه إيدي بشكلٍ أكثر مباشرة. وقالت: «إيدي، هل تعرفين ما إذا كان جيك مدينًا؟ نعلم أن هناك رهنًا عقاريًّا صغيرًا على المنزل، ولكن بخلاف ذلك، هل هناك احتمال أن يكون قد اقترض بعض المال؟»

كررت إيدي قائلة: «رهن عقاري صغير؟ معقول. بالطبع.» لم تكن لديها أدنى فكرة عن الأمر. أردفت قائلة: «لا أعتقد ذلك ... لا، ليس علينا أي ديون. أي ديون أخرى.»

سألتها نيتا: «هل كان جيك سيخبرك بذلك إن حدث؟»

تلوَّن وجه إيدي. كان واضحًا لنيتا أنها لم تكن تعرف شيئًا عن الرهن العقاري. ردَّت إيدي: «أعتقد ذلك، أجل.»

«أنت غير متأكدة من ذلك، أليس كذلك؟»

تنهدت إيدي وهي تفرك عينَيها بقبضتَيها مثل طفلة ناعسة. ببساطة، لم يكن لديها الطاقة اللازمة لتكون حذِرة. فقالت: «لقد أخبرتك أنه كان أبيًّا. وكانت الأمور صعبة بيننا، لذا ...»، ثم توقفت عن الكلام. فكرت مرة أخرى في تلك المشاجرة الأخيرة، عندما وصفته بأنه فاشل. بالطبع لم يخبرها أنه حصل على رهن عقاري. بالطبع لن يخبرها إذا اضطر إلى اقتراض المال! لماذا قد يقدِّم لها المزيد من الإخفاقات لتستخدمها ضده؟

أدركت إيدي أن نيتا تراقبها، وتتوقع منها أن تسترسل أكثر. فقالت: «المسألة هي أنه كان قد حقق نجاحًا كبيرًا في بداية مسيرته المهنية. كان بالكاد في العشرين من عمره عندما أُنْتِجَ أول سيناريو له، ليس للتليفزيون أو شيء كهذا. كان فيلمًا مستقلًّا قصيرًا قليل التكلفة، لكنه شارك في بعض المهرجانات. حتى إنه فاز بجائزة عنه؛ الجائزة التي اختفت.» وقفت على قدميها، وأردفت: «في الواقع، هناك صورة يمكنني أن أريها لكِ. لدى رايان واحدة موضوعة في إطار في مكان ما هنا ...»

على المكتبة بجوار المدفأة، كانت هناك عدة صور صغيرة موضوعة في إطارات. أمسكت إيدي بواحدة منها وأحضرتها لتريها لنيتا. لقد التقطت هذه الصورة في الليلة التي عُرض فيها الفيلم أول مرة في مهرجان لندن للأفلام المستقلة، وكان جيك يظهر في الصورة مبتهجًا بالفوز وهو يحمل جائزته عاليًا، بينما كان رايان قافزًا إلى أعلى، يحاول على ما يبدو انتزاعها منه. وبعد أن أعطت الصورة لنيتا، وجدت إيدي نفسها تبتسم بابتهاجٍ وسط دموعها. وقالت: «كانا سعيدين للغاية في تلك الليلة. كان رايان يمزح كالعادة ... كانَ يمزح دائمًا بقوله إن التطور غير المتوقع في أحداث الفيلم كان فكرته؛ لذا كان لا بد أن يحصل على بعض التقدير.»

«هل هذا صحيح؟» هكذا قالت نيتا وهي ترفع نظرها من الصورة إلى إيدي، وقد رفعت أحد حاجبيها. وسألت إيدي وهي تعود لتنظر إلى الصورة: «عمَّ كان يدور؟ هذا السيناريو.»

أجابت إيدي: «كان يدور حول رجل اتُّهم خطأً بالاغتصاب في موعدٍ غرامي. إنه يدور حول السياسة الجنسية، واسمه «لا غضب» (نو فيوري). على غرار، في الجحيم لا غضب ...»

«يضاهي غضب امرأة مُحتقرة.» هكذا أكملت نيتا الاقتباس وعيناها لا تزالان على الصورة. وسألت إيدي: «ماذا كان التطور غير المتوقع في الحبكة؟»

«إنه لم يُتهَم بالخطأ على الإطلاق. إنه فقط يجعل الجميع يصدقون براءته. ويفلت من العقاب.»

نظرت نيتا إلى أعلى. وقالت: «يبدو ذلك سوداويًّا جدًّا.»

نظرت إيدي بعيدًا، وفجأة شعرت بعدم الارتياح تحت تأثير نظرة نيتا الحادة. قالت إيدي: «حسنًا، نعم، أعني ... لقد كان فيلم تشويقٍ مخيفًا. لذا بالطبع كان سوداويًّا. كان من المفترض أن يكون سوداويًّا.»

وقفت نيتا على قدمَيها، وسارت نحو المكتبة، وأعادت إطار الصورة إلى موقعه الأصلي. أخذت إطار صورة آخر ورفعته لتريه لإيدي. قالت بابتسامة: «هذه صورة جميلة لك.» في

الصورة، كانت إيدي وجيك ورايان يجلسون على كراسيَّ قابلة للطي في حديقة صغيرة، وهم مُسمرُّون بشدة ويبتسمون للكاميرا.

قالت إيدي: «هذا هو المكان الذي مكثنا فيه في ستريتام. لقد مكثنا هناك بعد زواجنا مباشرة. لقد كان مكانًا صغيرًا جدًّا مكونًا من سريرين في الطابق الأرضي. كنا نحن الثلاثة متكدسين معًا طوال الوقت، لكننا كنا سعداء جدًّا هناك.»

«ثلاثتكم؟»

«كان رايان يعيش معنا آنذاك.»

رمقتها نيتا بنظرة غريبة. وقالت: «بعد زواجكما مباشرة؟»

شعرت إيدي بنفسها وهي تحمرُّ خجلًا. وقالت: «فقط فترة وجيزة. كان قد ...» ثم شعرت بالغضب من نفسها. لماذا كانت تشعر بالخجل من هذا؟ لم يكن هناك شيء غير ملائم في ذلك. فأردفت: «كان قد انفصل لتوِّه عن فتاة ما، على ما أعتقد. لا أتذكر التفاصيل حقًّا. لم يستمر الأمر طويلًا.» نظرت إلى قدميها. وأضافت: «على أي حال، كنا سعداء للغاية. ثلاثتنا.»

شعرت إيدي بعينَي نيتا مثبَّتتين عليها وهي تعود للجلوس جوارها على الأريكة. قالت نيتا: «لا بد أن الأمر كان صعبًا، العيش مكدسين معًا بهذه الطريقة. أتصور أنه كانت هناك مشاجرات ...»

نظرت إيدي بعيدًا. وردت: «ليس تمامًا.»

«قَطُّ؟»

قالت إيدي: «حسنًا، لقد كانا يتنافسان، جيك ورايان، لقد كانا دائمًا كذلك، منذ أن كنا صغارًا. مَن يمكنه الجري أسرع، والتسلق أعلى، وإحراز أهداف أكثر. وعندما كبرنا، صارا يتنافسان حول من ينهي الماراثون في وقتٍ أقصر، ومن يمكنه القيام بأكبر عَدَّات من تمرين الضغط ... الأشياء الخاصة بالصبية هذه.» خلعت إيدي نعلَيها، وثنت قدميها تحتها وهي تتكئ على مسند ذراع الأريكة.

«لا شيء مهم إذن؟»

زفرت إيدي بصوتٍ عالٍ عبر شفتيها المزمومتَين. «لماذا تسألين عن هذا؟ لا، لم يتشاجرا كثيرًا! ربما كان يحدث هذا عندما كنا صغارًا. ذات مرة، توقفا عن التحدث كلٌّ منهما إلى الآخر بضعة أشهر. كان الأمر يتعلق بإحدى الكاميرات؛ فقد كسر جيك كاميرا رايان.» شعرت إيدي بوجهها يحمرُّ خجلًا مرة أخرى، وأدارت رأسها بعيدًا. ثم أردفت: «أو شيء من هذا القبيل.»

اقتربت نيتا قليلًا من إيدي على الأريكة. وقالت: «السبب في أنني أسأل عن هذا يا إيدي، هو أنه عندما جاء الضباط ليخبروكِ بمقتل جيك، كان أول شيء سألتِ عنه هو ما إذا كان قد وقع شجار. لقد كنت تعلمين أن رايان ذهب إلى المنزل كما كان يفعل صباح كل خميس. لذا أردتُ أن أعرف، ما الذي جعلكِ تعتقدين أنهما يمكن أن يتشاجرا؟»

اعتدلت إيدي في جلستها مرة أخرى. وقالت بغضبٍ: «ما هذا بالضبط؟ هل تستجوبينني الآن؟»

قالت نيتا بهدوء: «لا. أنا فقط أحاول فهم سبب اعتقادك أن جيك ورايان قد يتشاجران.»

سألتها إيدي: «لماذا نتحدث عن هذا الأمر؟ في البداية قلتِ إنكِ تعتقدين أنها كانت عملية سرقة، ثم تسألين عن الديون، والآن تسألين عن رايان ... هل تقولين إنك لم تعودي تعتقدين أنها كانت سرقة؟» كان في إمكان إيدي سماع صوتها يرتفع، ويصير أكثر حدة.

قالت نيتا بحذر: «كان انطباعنا الأول أنها سرقة، لكننا الآن في اليوم السادس من التحقيق ولم نعثر على أي آثار اقتحام. لم تُفتَح الأقفال بالقوة، ولم تُكسَر النوافذ، وكان التليفزيون وجهاز الإكس بوكس لا يزالان هناك. وجدنا محفظة جيك، تحتوي على ستين جنيهًا إسترلينيًّا نقدًا في الجيب الداخلي لمعطفه.»

تنهدت إيدي وانحنت إلى الأمام، وأراحت جبهتها على يديها. وقالت: «لكنهم لم يكونوا في حاجة إلى الاقتحام! كان الباب مفتوحًا. وربما لم يجدوا محفظته فحسب. ماذا عن الجائزة؟ تلك التي كنا ننظر إليها لتوِّنا؟»

تنحنحت نيتا. وقالت: «المسألة هي»، هكذا شرعت نيتا في الحديث، واستطاعت إيدي الاستنتاج من نبرة صوت نيتا أنها لن يعجبها ما سيقال. وأضافت: «لم أشرح لكِ هذا من قبل؛ لأنني لم أرغب في إزعاجك، ولكن الجائزة ليست مفقودة.» حدقت إيدي إليها بذهول. أردفت نيتا قائلة: «لقد أخذها ضباط مسرح الجريمة من المنزل في يوم الهجوم. لقد أجرينا بعض الفحوصات. ونعتقد أنها سلاح الجريمة.»

«يا إلهي!» تجعد وجه إيدي تأثرًا، ودفنت وجهها بين يديها مرة أخرى.

«حتى الآن عثر فريق الطب الشرعي على ثلاث مجموعات مختلفة من البصمات على الجائزة. بصمات جيك وبصماتك، وبصمات رايان، بالطبع.»

رفعت إيدي رأسها مرة أخرى. وقالت: «لماذا قُلتِ «بالطبع» عندما أتيت على ذكر بصمات رايان؟»

قالت نيتا وهي تراقب وجه إيدي بعناية: «حسنًا، نحن نعلم أنه لمس الجائزة. يقول إنه أمسكها عندما حرَّك جسد جيك. في الواقع، كان لا يزال ممسكًا بها في يده عندما وصل المسعفون. لقد بدا أنه يكاد ...»

«يكاد ...؟»

«يكاد يكون رافضًا أن يتركها، هذا ما قاله المسعفون.»

الفصل السابع

أُوقظت إيدي من نومها بعنفٍ بفعل صوت هاتفها.

انتفضت جالسة، وكادت تسقط من على الأريكة. سطع ضوء الشمس الساطع من خلال النوافذ. ألقت نظرة على الساعة الموضوعة فوق المدفأة؛ لا يمكن أن تكون قد نامت أكثر من خمس عشرة دقيقة. توقف الهاتف عن الرنين. ثم بدأ يرن مرة أخرى. يا إلهي! كل ما أرادت فعله هو النوم. مدَّت يدها والتقطت الهاتف من على طاولة القهوة. لقد كانت لارا تتصل مرة أخرى.

«مرحبًا؟» هكذا أجابت.

«إيدي!» ساد الارتياح صوت صديقتها العميق الأجش. وأردفت: «أخيرًا. لقد كنت قلقة جدًّا عليكِ!»

«أعرف. أنا آسفة، أنا ...»

«لا، لا تعتذري لي، لا تكوني سخيفة. هل أنتِ بخير؟ بالطبع أنت لست بخير. هل يمكنني المجيء لرؤيتك؟»

«لارا، أنا منهكة، لا أنام ...»

«انظري، سآتي وأصنع لك كوبًا من الشاي ثم سأذهب مرة أخرى، ما رأيك؟ لن أبقى. هل أحضر لك أي شيء؟ طعامًا، شرابًا ...؟»

نظرت إيدي إلى زجاجة الويسكي شبه الفارغة الموجودة أعلى خزانة مشروبات رايان.

«أيمكن أن تحضري لي زجاجة ويسكي لاجافولين؟»

لم تصل لارا إلا بعد الرابعة بقليل، لكن إيدي أصرَّت على فتح زجاجة الويسكي على أي حال. «لقد قضيتُ يومًا فظيعًا»، هكذا قالت وهي تعود ببؤسٍ إلى ركنها على الأريكة

وتسحب البطانيات عليها. «لقد استجوبتني هذه المرأة، ضابطة الاتصال العائلي.» هكذا قالت وهي تشير بأصابعها بعلامات اقتباس في الهواء. وأردفت: «من المفترض أن تبلِّغني بالمستجدات، لكنني أشعر أنها تسعى لاستخلاص المعلومات مني فحسب.»

استقرت لارا — التي كانت تبدو مثالية كعادتها في بذلتها السوداء المتأنقة وحذائها الرياضي الأحمر الزاهي، وشعرها الداكن المصفَّف إلى الخلف والمرفوع عاليًا على شكل ذيل حصان — على الكرسي ذي الذراعين، وظهرها للنوافذ. انحنت إلى الأمام، وأسندت مرفقيها إلى ركبتيها. وقالت: «لكنهم لا يظنون أنكِ متورطة ...»

أجابت إيدي: «لا، لا يظنون ذلك. لم أعد متأكدة مما يظنونه. في البداية، قالوا إنها عملية سرقة، ثم تحدثوا عن الديون، ولكن ... أوه، لا أعرف. أنا لا أفكر بشكلٍ صحيح. لا أستطيع التفكير بشكلٍ صحيح، أنا متعبة جدًّا. وأشعر بالذنب بشدة طوال الوقت.»

أغمضت لارا عينيها لحظة. وقالت: «أتقصدين لأنكِ لم تكوني هناك؟ لأن ...»

أكملت إيدي قائلة: «لأنني كنت هنا. مع رايان.»

لم تقل لارا شيئًا لبضع لحظات. ثم قالت: «عندما تقولين مع رايان، فإنك لا تقصدين ...»

ردَّت إيدي: «لا، ليس هكذا. أتمنى فقط ... أتمنى لو كنت أستطيع أن أحزن بطريقة طبيعية، هل تفهمين؟ أن أكون حزينة بطريقة طبيعية.»

اعتدلت لارا في جلستها أكثر، وابتسمت لإيدي ابتسامة حزينة. وقالت: «لست متأكدة ما إذا كان الحزن أمرًا طبيعيًّا على الإطلاق. إنك تشعرين بما تشعرين به. إنه دائمًا ما يكون معقدًا.»

أومأت إيدي برأسها. شربت كأسها بالكامل وانحنت إلى الأمام لتصب لنفسها كأسًا أخرى. وقالت وهي تنظر إلى لارا: «لا تنتقديني.»

رفعت لارا يديها. وقالت: «سأكون آخر شخص على وجه الأرض ينتقدك يا إيدي.»

أخذت إيدي رشفة أخرى من الويسكي لتدفئها، واستمتعت لحظة بتأثيره المخدر الجميل. لاحظت الآن كيف بدت لارا، على الرغم من أناقتها الظاهرية، مرهقة قليلًا هي الأخرى. فسألتها: «هل أنت بخير؟ تبدين إلى حدٍّ ما ...»

أجابت لارا بابتسامة: «منهَكة؟ أجل، لقد كنت أعمل بلا توقف. لديَّ مشروع كبير أعمل عليه منذ فترة طويلة. كان عملًا يدفعه الشغف، ولكن يبدو أن الأمور تتضافر أخيرًا ليكتمل.»

أومأت إيدي برأسها، وقد شعرت بالارتياح لأن بؤرة الانتباه قد ابتعدت عنها للحظة. حثَّت لارا على الحديث أكثر عن شركتها، ستوري تايم. كانت نوعًا ما تختص بإنتاج البودكاستات والكتب الصوتية حيث يمكن للناس الاشتراك لسماع القصص الأصلية، التي تُروى على مدار عدة أيام.

قالت لارا: «الميزة الرائعة أنه يمكنك أيضًا قراءة القصص على الجهاز اللوحي أو الهاتف، ثم التبديل إلى الاستماع الصوتي، اعتمادًا على ما إذا كنتِ تركضين أو تقودين السيارة أو تجلسين في المنزل على الأريكة. لدينا جميع أنواع القصص؛ قصص لهواة التنزُّه، وقصص للمستكشفين، وحكايات عن الأشباح تُروى حول نار التخييم، وقصص للرومانسيين وغير ذلك. على أي حال، نحن جاهزون تقريبًا لتجربته على الناس. وبعد ذلك نأمل أن يكتمل المشروع برمته ويصير جاهزًا للعمل في الخريف. سأرسل إليكِ رابطًا، إذا أردت، حسنًا؟ ستكون التجربة مجانية.»

أومأت إيدي برأسها، ثم أخذت رشفة أخرى من شرابها وغاصت إلى أسفل قليلًا في الأريكة.

أمالت لارا رأسها إلى الجانب، ونظرت إليها بقلق. قالت وهي تلتقط حقيبة يدها التي وضعتها عند قدميها: «إنكِ منهَكة. لا بد حقًّا أن أتركك لتستريحي.»

«لا»، هكذا اعترضت إيدي. كان الكحول يجعلها سعيدة بالصحبة. فأردفت قائلة: «ابقي فترة أطول قليلًا. أخبريني بشيء آخر، أي شيء. هل ما زلت تفكرين في المشاركة في ذلك الماراثون الفائق؟ هل تتدربين؟»

كان الجري هو اللغة المشتركة بين لارا وإيدي، وهو ما ربط بينهما في المقام الأول. بعد شهر أو اثنين من انتقال إيدي وجيك إلى اسكتلندا، انضمَّت إيدي إلى نادٍ للجري كوسيلة لمحاولة التعرف على الناس. في أول سباق جري شاركت فيه، لفتت لارا انتباهها بقامتها الطويلة، وساقيها الطويلتين وسرعتها الشديدة. ركزت إيدي نظرها بثباتٍ على شعار «ماراثون لندن» الموجود على ظهر قميص جري المرأة الطويلة، وحاولت جاهدة مواكبة سرعتها. وفشلت. ولكن بعد انتهاء السباق، كانت المرأة الطويلة، لارا، أول من رحَّب بإيدي. كانت منفتحة وودودة، وإن كانت، كما ظنَّت إيدي في ذلك الوقت، حادة بعض الشيء. كانت لارا صديقتها الأولى والوحيدة في إدنبرة حتى انتقل رايان من لندن إلى هناك.

كانت لارا تتحدث عن جدول تدريباتها عندما سمعت إيدي ضجيجًا في الخارج وجفلت. توقفت لارا عن الكلام، ورفعت حاجبيها. وسألت: «ما الأمر؟»

«لا شيء، أنا فقط ...» كانت إيدي تميل إلى الأمام على الأريكة، وتمد رقبتها لترى الباب الأمامي. وأردفت قائلة: «لقد سمعت شيئًا. اعتقدت أن ربما ...»

«ربما؟»

«ربما عاد رايان إلى المنزل مبكرًا.» جلست إيدي مرة أخرى على الأريكة، وهي لا تزال تنصت بإمعان. وأخذت رشفة أخرى من شرابها.

سألتها لارا: «هل سيكون ذلك مشكلة؟»

قضمت إيدي أحد أظفارها. وقالت: «إنه ليس في حالة جيدة. أعني، من الواضح أنه ليس في حالة جيدة. لقد فقد جيك، وكان هو من وجد جثته. ولكن الطريقة التي يتصرف بها ليست ... طبيعية. إنه يصر على الذهاب إلى العمل، يصر على أنه لا يستطيع أخذ إجازة، ولكن عندما يعود إلى المنزل، يكون غاضبًا، حساسًا، وشبه ... شبه مذعور. إنه يقفز عند سماع أصوات عالية. لقد فقد أعصابه عندما صفعت الباب الأمامي بالخطأ قبل بضعة أيام ... أعتقد أنه مثلما قلتِ، كل الناس حزنهم معقد.»

أومأت لارا بتأمُّل. وقالت: «أجل، ولكن غير مقبول أن يغضب منكِ.»

قالت إيدي ببؤس: «لا، لا بأس، لا بأس. لكنني أشعر أنه مستاء من وجودي هنا، وأنه يفضِّل حقًّا أن أكون في مكان آخر. وهذا مؤلم، لأنني أشعر أننا في حاجة إلى بعضنا أكثر من أي وقتٍ مضى.» هزَّت رأسها. وقالت: «لا أعرف، إنني أبالغ في رد فعلي تجاه الأشياء أيضًا. أنا أيضًا حساسة للغاية، محمومة بالشك ...» شربت كأسها بالكامل، وانحنت إلى الأمام لتصب كأسًا أخرى.

قالت لارا وهي تعض شفتها: «إيدي ...»

أجابت إيدي: «قلتِ لا نقد، أتتذكرين؟»

فأومأت لارا مرة أخرى.

عادت إيدي إلى جلستها، ومدَّدت ساقيها أمامها واضعة واحدة فوق الأخرى، وأخذت رشفة كبيرة أخرى. قالت: «المشكلة في رايان أنه لا يتعامل مع الفشل بشكلٍ جيد. ليست لديه الكثير من الخبرة في ذلك.»

عبست لارا قائلة: «الفشل؟»

«هكذا سيرى الأمر. لم يقل ذلك، ولكني أعرف رايان، سيظن أنه خذل صديقه وتخلى عنه. وأنه أذى مشاعر جيك بوقوفه في صفي، على الرغم من أن الأمر لم يكن كذلك حقًّا. الأمر برمته معقد جدًّا، وأنا لا أتوقف عن التفكير ...» تحشرج صوت إيدي. وأردفت

قائلة: «أظل أسأل نفسي عن السبب. ماذا فعلنا لنستحق هذا؟ نحن أشخاص صالحون. نحن لا نستحق هذا.»

نهضت لارا فجأة وذهبت لفتح النافذة. وقالت: «الجو خانق هنا، أليس كذلك؟» لبضع لحظات، وقفت أمام النافذة المفتوحة وهي تنظر إلى أشعة الشمس الناعمة للمساء. قالت بهدوء كأنما تقول لنفسها: «هذا أفضل.»

من خلفها، شربت إيدي كأسها واستقرت على الأريكة، وسحبت البطانية إلى ذقنها.

للمرة الثانية في ذلك اليوم، استيقظت إيدي مفزوعة. لم تعد أشعة الشمس تتدفق من خلال النوافذ الآن. كانت الغرفة معتمة تمامًا. للحظة أو اثنتين ظلت مستلقية على الأريكة تستمع إلى دقات قلبها المذعورة. لم تتذكر أنها ودَّعت لارا، لا بد أنها استغرقت في النوم فحسب. تذكرت الويسكي. كانت تشعر بآثاره الآن، رأسها يؤلمها وفمها جاف. دفعت الغطاء، وصارعت للوقوف. محمومة بالذعر، حاولت العثور على مصباح الطاولة إلى يسارها، ولكنها كانت كالعمياء في الظلام.

اجتاحتها موجة من الشعور بالغثيان، أجبرتها على الجلوس ساكنة للحظة. نظرت أمامها مباشرة دون أن ترى أي شيء، ولكن إحساسًا بدأ يتسلل إليها بأنها ليست وحدها، وأن هناك شخصًا آخر في الغرفة. ربما نامت لارا هنا أيضًا. فجأة، أحسَّت بحركة، وفي اللحظة التالية أُضيئَت الغرفة. كان رايان جالسًا على المقعد المقابل لها، يراقبها ويده على مفتاح المصباح.

صرخت إيدي وهي تحمي عينيها من وهج الضوء قائلة: «يا إلهي! لقد أخفتني يا رايان!»

لم ينبس رايان ببنت شفة. كان وجهه خاليًا من التعبير، وعيناه زائغتَين. أدركت أنه سكران.

همست قائلة: «هل أنت بخير؟» ولكنه ظل صامتًا. أردفت إيدي قائلة: «رايان، ماذا حدث؟ لقد بدأت تخيفني ...»

قال أخيرًا: «لقد زارت صديقتك مكتبي.»

رمشت إيدي بقوة، ودفعت أصابعها بين شعرها. وقالت: «صديقتي؟ أتقصد لارا؟»

هزَّ رأسه ببطء وعيناه لم تفارق عينيها. وقال: «صديقتك الأخرى. الضابطة. هي واثنان من رفاقها حضروا إلى مكتبي؛ في الواقع اقتادوني من مكتبي. أمام الشركة بأكملها.»

«ماذا؟ لماذا؟ يا إلهي، يا رايان، لم أكن أعرف شيئًا ...»

«لماذا؟ أخبريني أنتِ يا إي.» لم يتحرك، لكن صوته ارتفع. وقال: «أخبريني لماذا فجأة يبدو أنني صرت المشتبه الرئيسي في هذا الأمر.»

««المشتبه الرئيسي»؟» انخلع قلب إيدي ذعرًا. وقالت: «لا يا رايان، لم أقل شيئًا، لم ...»

«أرادوا معرفة ما الذي كنت أنا وجيك نتشاجر بشأنه ذلك الصباح. أرادوا معرفة ما إذا كنا قد تشاجرنا حول فيلم جيك. ما إذا كنت أحسد جيك على نجاحه!» ضحك ضحكة بغيضة ومريرة. وأكمل قائلًا: «ثم أرادوا معرفة إذا كنا نتصارع «عليكِ».» لوى رايان شفتيه مبتسمًا ابتسامة هازئة كريهة. وقال: «هل هذا ما قلتِه لهم؟ إننا قضينا حياتنا كلها نتشاجر للحصول على اهتمامك؟»

أجابت إيدي والدموع تحرق عينيها: «بالطبع لم أفعل ذلك. لم أقل قَطُّ إنكما تصارعتما عليَّ. لم أقل إنكما تشاجرتما أصلًا. لقد ذكرت الفيلم ذكرًا عابرًا فحسب. لا أعرف حتى لماذا كنت أتحدث عنه ...»

وقف رايان وهو يترنح قليلًا. وقال وهو يتجه نحو غرفة نومه: «لا، ولا أنا أعرف أيضًا. ولكنني أعرف الآتي. أنني أريدكِ أن ترحلي.»

قالت: «رايان ...» وبدأت تبكي.

التفت لمواجهتها وقد اختفى الاحتقار من على وجهه، وقال: «إيدي، إنني أعني ما قلتُه.» كان وجهه الآن جامدًا. وأردف قائلًا: «لا أريدك هنا. هل تفهمينني؟ لا أريدك أن تتواجدي معي على الإطلاق.»

الفصل الثامن

بعد أن خلد رايان إلى الفراش، أطفأت إيدي الضوء واستلقت مستيقظة في الظلام، تحاول جاهدة إبطاء نبضات قلبها. لا بد أنها نامت في النهاية؛ لأنها عندما استيقظت كان الضوء قد سطع، وكانت الشقة صامتة على نحوٍ أخبرها أن رايان قد غادر إلى العمل. نهضت وأحضرت كوبًا من الماء من المطبخ وتناولت قرصَي باراسيتامول. فتحت الستائر لكنها وجدت أن المنظر قد اختفى. كان الضباب البحري الكثيف قد انسدل وغطى المدينة باللون الأبيض.

أعدت قهوة وعادت إلى الأريكة، وحينئذٍ لاحظت مظروفًا على طاولة القهوة يحمل اسمها، وكانت بجواره قصاصة ورقية مطوية. تناولت الورقة أولًا وفتحتها، فقرأت الرسالة التالية:

> «لم أرغب في إيقاظك! آمل أن تنعمي بقسطٍ جيدٍ من النوم. سأتصل بك غدًا، مع خالص حبي.»

لا بد أن لارا تركتها بالأمس. لم تلاحظ هذه القصاصة في الليلة الماضية، لكن ذلك لم يكن مفاجئًا على الإطلاق في ظل ما حدث. التقطت المظروف بعد ذلك. وفي الداخل وجدت رسالة أخرى:

> «آسف بشأن ليلة أمس. كنت مستاءً. أعتقد أننا في حاجة إلى مساحة للحزن، أليس كذلك؟ أليس من الأفضل أن تبحثي عن مكان آخر تقيمين فيه لفترة؟
> رايان.»

ارتفعت معنويات إيدي لكنها سرعان ما انخفضت مرة أخرى. كانت تأمل أن يغيِّر رأيه تمامًا؛ فإلى أين كان يتوقع منها الذهاب على أي حال؟ لم يكن يتوقع بالتأكيد أن تعود إلى منزل الجرف. أخذت رشفة من قهوتها، وشعرت على الفور تقريبًا بموجة من الغثيان.

ركضت إلى الحمام، وجثت على ركبتَيها، وأمسكت بالمرحاض بكلتا يديها. وحاولت التقيؤ. لكن لم يخرج شيء. ظلت جاثية تعانق المرحاض وهي في أشد حالات التعاسة، وراحت تبكي بهدوء بينها وبين نفسها وقد أغلقت عينيها على دموعها. وعندما فتحتهما مرة أخرى، رأت شيئًا ما. لمحة من المعدن في قاع المرحاض. دفعت بذراعها في الماء، وأغلقت أصابعها حول جسم معدني صغير.

على مدار بضع لحظات، جلست على الأرض وقلبها ينبض بشدة، والماء يقطر من ذراعها. كانت تحدق بذهول في القطعة الذهبية الصغيرة الموجودة بين أصابعها، والتي كان اسمها محفورًا بداخلها. لقد كانت خاتم زواج جيك.

كان هذا غير منطقي تمامًا. لم يذهب جيك إلى شقة رايان منذ أسابيع، منذ شهر على الأقل. محالٌ أنه أتى إلى هنا خلال هذه الفترة. فكرت في احتمالية أن يكون المسعفون قد أعطوا رايان الخاتم من أجل حفظه. لكن ما الذي حدث بعد ذلك؟ هل نسيه رايان؟ هل «تخلص منه»؟ حتى في الحالة التي كان عليها الليلة الماضية، كانت إيدي تجد صعوبة في تصديق أنَّ رايان يمكن أن يفعل ذلك.

كانت الأفكار تتسارع في عقلها، وتذكرت صباح اليوم السابق وتسلُّل نيتا إلى غرفة نوم رايان، وتفتيشها فيها. لقد استخدمت نيتا الحمام، لكن ماذا كان يعني ذلك؟ أنَّ نيتا كانت تحاول «توريط» رايان في جريمة قتل جيك؟ أو أنَّ نيتا كانت تحاول الإيقاع بها هي؛ وهي فكرة انقبضت معدة إيدي بشدة لها؟ لكن لارا أيضًا كانت هنا، أليس كذلك؟ وهي أيضًا استخدمت الحمام. لكن كيف كان من الممكن أصلًا أن تحصل لارا على خاتم جيك؟ لارا لم ترَ جيك منذ أشهر.

لا بد أنَّ هذه سخافة منها. لا شك أنَّ حالة فرط الشك أصابتها مجددًا. أليس كذلك؟

بينما كانت تجلس على بلاط الحمام البارد تحدق إلى خاتم زفاف جيك، انتبهت إلى صوت رنين، يتوقف ثم يتكرر مرارًا وتكرارًا. إنه جرس الباب. ساعي البريد، على الأرجح. كانت تميل إلى تجاهله، لكنه استمر، مرارًا وتكرارًا، حتى إنها لم تعُد قادرة على تحمُّله أكثر من ذلك. تحاملت على نفسها حتى وقفت، وغسلت يديها ووجهها بالماء بسرعة، ثم توجهت إلى الردهة. وضغطت على زر نظام الاتصال الداخلي.

«إيدي؟» كانت نيتا.

كان قلب إيدي يدق بسرعة شديدة بين ضلوعها، وفتحت فمها لتقول شيئًا، لكنها وجدت أنها ليست لديها أي كلمات.

«إيدي؟ أنا نيتا بادامي.»

«لا أستطيع التحدث معك الآن، أنا ...»

«إيدي، رجاء هل يمكنك أن تفتحي الباب؟»

أخذت إيدي نفسًا عميقًا. «لا، لا أستطيع. أنا لست بخير، أنا ...»

«إيدي، عليَّ أن أدخل وأتحدث معك.» كان صوت نيتا صارمًا، كأنها معلمة في المدرسة. «إنه أمر مهم. لن يستغرق منك وقتًا طويلًا على الإطلاق، لكن من الضروري أن نتحدث الآن.»

ضغطت إيدي على الزر لفتح الباب الأمامي. فتحت باب الشقة، وقبضت يدها اليمنى على إطار الباب لتستند إليه. وفي يدها اليسرى، كانت تمسك بخاتم زواج جيك. استمعت إلى خطواتهم على الدرج؛ يبدو أنهم جمع كبير، كانت خطواتهم كأن جيشًا يتقدم في اتجاهها. شعرت برغبة مفاجئة في الفرار، لكن لم يكن ثمة مكان تذهب إليه، ولا مكان للاختباء.

ظهرت نيتا، بوجه متجهم، وكان يتبعها ضابطان يرتديان زي الشرطة. ليس جيشًا إذن، ثلاثة أشخاص فقط. شدَّت إيدي رداء نومها وربطته بإحكامٍ أكبر حولها. تمايلت في المدخل، إذ كانت مصابة بدوار.

سألت: «ما الأمر؟ ما الأمر المهم جدًّا؟»

«هل يمكننا الدخول دقيقة واحدة فقط؟»

تراجعت إيدي باستسلام. وتخطَّاها ضابطا الشرطة إلى المطبخ، حيث وضع أحدهما شيئًا ما على المنضدة قبل أن يبتعدا. أخذت نيتا بذراع إيدي وقادتها إلى المطبخ. ابتعدت إيدي عنها، خائفة، رغم أنها لم تستطع تحديد سبب خوفها. على المنضدة الرخامية، قبع كيسان من البلاستيك الشفاف، وفي داخلهما هاتف محمول وجهاز كمبيوتر محمول.

سألتها نيتا: «هل تميزين أيًّا من هذَين الشيئَين؟»

شعرت إيدي أنَّ ساقيها بدأتا تهتزان تحتها. وأومأت برأسها.

قالت: «هذا هو الكمبيوتر المحمول الخاص بجيك. أعرفه من هذا الملصق المكتوب عليه: «وارب سبييد فيلمز»؛ هذا ملصقه. الهاتف المحمول ... لا أستطيع أن أقول ذلك على وجه اليقين، لكنه يبدو كهاتفه.» شعرت بقبضة نيتا على ذراعها ترتخي. وأردفت: «أين وجدتم هذَين الشيئَين؟»

قالت نيتا: «في قالب المهملات العمومي الموجود في نهاية الطريق. قال أحد السكان إنه رآهما هناك هذا الصباح. واعتقد أنه من غير المعتاد التخلص من مثل هذه الأشياء.»

دار رأس إيدي. «قالب المهملات ... في ... في نهاية الطريق؟» على بُعد نحو خمسين ياردة من باب رايان الأمامي. قالت: «لم أضعهما هناك. أقسم أنني لم أفعل ذلك.»

أومأت نيتا. وقالت: «لا، لم نظن أنك مَن وضعهما هناك يا إيدي.»

«إذن ... «رايان»؟» اختنقت إيدي بالبكاء. وسقطت عندما بدأت ساقاها الهلاميتان تخونانها. أحدهم أمسك بها قبل أن تصطدم بأرضية المطبخ؛ كان أحد الرجلين اللذين يرتديان زي الشرطة على الأرجح. كان آخر شيء سمعته قبل أن تفقد وعيها هو رنة خاتم زواج جيك على البلاط الحجري بينما تدحرج من يدها.

الجزء الثاني

نوفمبر

الفصل التاسع

ثم تبقى واحد.

كل ما تستطيع إيدي تذكُّره، أنهم كانوا ثلاثة: جيك ورايان وإيدي. قبل جيك وقبل رايان، كانت إيدي وحيدة دائمًا. وها هي أصبحت الآن وحيدة مرة أخرى: وحيدة وخائفة.

آلمتها مقابض أكياس التسوق في راحتَيها؛ إذ سارت إيدي مسافة نصف ميل، في طريق عودتها من محطة الحافلات إلى المسار المؤدي إلى منزل الجرف بأسرع ما يمكن. كان الجو باردًا جدًّا وبدأ الضوء يتلاشى، وبدأ معدل ضربات قلبها يزداد في الارتفاع. لم تكن تستطيع أن ترى في الليل جيدًا؛ فلم يكن من الممكن أن تظل بالخارج بعد حلول الظلام.

كانت قد عادت إلى المنزل الواقع على الجرف منذ شهر. لم يكن لديها خيار آخر؛ فبعد القبض على رايان واتهامه بقتل جيك، ظلَّت إيدي في شقته حتى انتهاء عقد الإيجار. لم تقدر على تحمُّل تكلفة إيجاره بالطبع، وقد باءت محاولاتها لبيع منزل الجرف بالفشل. قليلون مَن أتوا لرؤيته، ولكن لم يقدِّم أحد عرضًا لشرائه. قال لها سمسار العقارات: «حاولي مرة أخرى في الصيف. لا أحد يريد شراء منزل في الظلام.» لا أحد يريد شراء منزل منعزل على جرف متآكل تعرَّض ساكنه الأخير للضرب المبرح حتى الموت، هذا ما لم يقله. لكن إيدي فهمت.

في الوقت الحالي، كانت عالقة هناك، وحيدة في الظلام المتزايد باستمرار. كان المنزل يقع تقريبًا على بُعد ميلَين من أقرب بلدة، لكن فور أن يسقط ستار الليل، كان يبدو كأنه يقع على حافة الأرض. وفيما عدا لسانًا بحريًّا مشجرًا في الشمال وآخر في الجنوب، لم تكن هناك أي علامات أخرى ظاهرة تدل على الحياة باستثناء السفن المارة بصمت. لم يكن هناك ضوء أو صوت، لا وجود لبهجة السكارى ولا ضحك تلاميذ المدارس. لم

يكن هناك سوى صوت الريح وهي تعصف بأشجار التَّنُّوب الواقعة خلف المنزل، والأمواج وهي تصطدم بالصخور، وصيحات النوارس التي لا مفر منها.

مشكلات إيدي أيضًا بدا أنه لا مفر منها. كانت هناك على عتبة بابها بينما دفعت الباب الأمامي بكتفها لتفتحه؛ كان بريد اليوم مُلقًى فوق بريد الأمس. كان معظمه فواتير لم تتمكن من دفعها. خطت فوق الكومة، وأشعلت الأضواء والتدفئة، وبدأت في ترتيب مشترياتها الضئيلة. أثار صوت الهواء في تحركه عبر الأنابيب أعصابها للغاية.

بعد أن وضعت مشترياتها من البقالة في أماكنها، جلست على طاولة المطبخ وتفحصت رسائل البريد الإلكتروني الواردة إليها، على أمل أن تجد ردًّا على أحد طلبات العمل التي أرسلتها. غير أنها لم تجد أي شيء؛ لا شيء سوى البريد المزعج والهراء التسويقي، بما في ذلك رسالة من شركة ستوري تايم، شركة لارا، تعرض عليها تجربة مجانية.

أغلقت إيدي جهاز الكمبيوتر المحمول، وهيَّأت نفسها للتعامل مع البريد الفعلي. فرزت المظاريف، واضعة إخطارات «الطلب النهائي» وحدها في جانب. كانت هناك رسالة من المحكمة تبلغها بموعد محاكمة رايان خلال ثلاثة أشهر. وكانت هناك رسالة تحمل ختم «سجن صاحبة الجلالة بإدنبرة».

كانت إيدي قد فتحت الرسائل القليلة الأولى التي أرسلها رايان. قرأت في كل سطر يأسه وعدم تصديقه أنها يمكن أن تعتقد أنه مذنب بقتل جيك. عذَّبتها مناشداته لها أن تأتي لزيارته، وبعد التفكير في الأمر، شرعت في ترتيب زيارة.

وحينئذٍ تدخَّلت نيتا. حذَّرتها قائلة: «قبل أن تذهبي لرؤيته يا إيدي، أعتقد أنه ينبغي لك معرفة الحقائق.» قالت إنَّ القضية المرفوعة ضد رايان تنطوي على أدلة قوية، سواء من حيث الأدلة الجنائية أو الدافع. ولم يكن هناك مشتبه بهم آخرون. قالت إنَّ رايان حاول توجيه أصابع الاتهام إلى شخص غيره. لقد وجَّه اتهامات لا أساس لها ضد امرأة غامضة لا يستطيع تذكُّر اسمها. غير أنه لم يكن هناك ما يشير إلى تورط أي شخص آخر.

قدمت نيتا إلى إيدي ملفًّا مخصصًا للقضية. ومما أثار رعب إيدي أنَّ الملف كشف لها أنها لم تكن تعرف رايان على الإطلاق. وأنها لم تكن تعرف جيك في حقيقة الأمر أيضًا. كشف لها أنهما كانا يكذبان عليها، ويخونان ثقتها، لسنوات. كان الأمر كما لو أنهما كانا يعيشان حياة موازية لا تعرف هي عنها شيئًا.

بادئ ذي بدء، لم تكن لديها أي فكرة عن حجم الديون المستحقة عليها هي وجيك. كان جيك يقترض مبالغ كبيرة من رايان باستمرار، وذلك منذ وقتٍ طويلٍ عندما بدآ

يواجهان مشكلات مالية لأول مرة. ومن رسائل البريد الإلكتروني التي كانا يتبادلانها، بدا أنه بعد أن ورث جيك المنزل، بدأ رايان في سؤاله عن الوقت الذي سيحصل فيه على جزء من أمواله. لم يذكر أي منهما أيًّا من هذا لإيدي.

كما أنهما لم يخبراها بحقيقة أن جيك حاول إثناء رايان عن الانتقال إلى إدنبرة في المقام الأول. لقد كتب إلى رايان قائلًا إنه وإيدي «في حاجة إلى الابتعاد» عنه. وقال إن هذا كان أحد أسباب انتقالهما. غير أنَّ ذلك — بحسب اعتقاد إيدي — لم يكن حقيقيًّا على الإطلاق.

في سلسلة أخرى من رسائل البريد الإلكتروني، أشار جيك إلى «ما حدث مع تانيا» وإلى «موضوع إل»، وسأل رايان عما إذا كان يريد حقًّا أن تعرف إيدي «الحقيقة». لم تكن لدى إيدي أي فكرة عما كان يعنيه هذا. كانت تعرف تانيا؛ فهي حبيبة سابقة لرايان قبل بضع سنوات. كان انفصالهما فوضويًّا، وتذكرت إيدي أنَّ كلمتَي «مجنونة» و«مهووسة» كانتا تُستخدمان لوصفها. أما «إل»، فيمكن أن يشير إلى عددٍ كبير من الأشخاص. منهم لارا، بالطبع، التي يعرفها جيك قليلًا، لكن هناك أيضًا كثير من الاحتمالات من مغامرات رايان العاطفية العديدة. واستطاعت إيدي أن تتذكر على الفور اثنتين باسم ليزي، إضافةً إلى ليان ولوسي.

بعد أن أرتها نيتا الملف، بحثت إيدي عن تانيا على الفيسبوك لكنها لم تجد شيئًا مثيرًا للاهتمام: كانت تانيا متزوجة منذ فترة طويلة، وقد نشرت للتوِّ صورًا لأطفالها. لم يكن رايان ولا جيك نشِطَين على وسائل التواصل الاجتماعي. لكن إيدي اكتشفت مجموعة على الفيسبوك تضم تلاميذ مدرستهم القدامى، حيث أصبح ثلاثتهم مؤخرًا موضع نقاش كبير. نشر زملاء الدراسة القدامى روابط لتقارير إخبارية بشأن مقتل جيك، تضمن الكثير منها تفاصيل مروعة عن الجريمة جرى تسريبها إلى الصحافة. والأسوأ من ذلك أن التقارير المتعلقة بجريمة القتل واعتقال رايان، جاءت تحتها عشرات التعليقات، كلها تقريبًا تكهنات خبيثة ونميمة، على غرار:

> انظروا إلى هذا! لا يمكنني القول إنني مندهش، فهؤلاء الثلاثة كانوا دائمًا غريبي الأطوار
> كان رايان بيرس غريبًا
> جيك بريتشارد كان مثلي الجنس، هذا شجار عشاق بلا شك
> هل تلك علاقة ثلاثية باءت بالفشل؟

لقد أفلتت من العقاب، أليس كذلك؟
دائمًا ما كانت عاهرة متكبرة
من المؤكد أنها متورطة في ذلك

أغلقت إيدي المتصفح، ولم تفتح وسائل التواصل الاجتماعي منذ ذلك الحين. لم تكن تعبأ بحياة أيٍّ من هؤلاء الأشخاص البغيضين ولا بآرائهم. هي ورايان وجيك كانوا أفضل منهم، ودائمًا كانوا كذلك. كان الثلاثة أكثر تميزًا بكثير.

لكن ذلك كان في الماضي. والآن، بينما نهضت إيدي من الطاولة، وألقت برسالة رايان غير المفتوحة في سلة المهملات، رأت انعكاس صورتها في زجاج النافذة. حدق إليها وجهها الشاحب، بائسًا ووحيدًا كشبح.

الفصل العاشر

غادرت إيدي المنزل في الظلام. كان من الخطر، بسبب ضعف بصرها، أن تجري قبل شروق الشمس. غير أنه لم يكن أمامها خيار آخر لأن الشمس لا تشرق إلا في الساعة الثامنة صباحًا في هذا الوقت من العام؛ ويبدو في بعض الأيام أنها لا ترغب في الشروق أصلًا. كان «ضروريًّا» أن تجري. فالجري هو الشيء الوحيد الذي يحافظ على صحتها العقلية. ولهذا نهضت، وعقدت رباط حذائها، وارتدت على جبينها مصباح الرأس، وانطلقت في الظلام عبر الأشجار، حيث تشابكت خيوط الضباب على الأغصان السوداء، معلقة مثل الأشباح.

عندما عادت إلى المنزل، كانت أطرافها تؤلمها بشدة، وكانت على وشك الاستعداد للاستحمام عندما رن هاتفها. شعرت برغبة في تجاهله؛ فالمكالمات الهاتفية لا تحمل أبدًا أخبارًا جيدة هذه الأيام. لكنها عندما رأت اسم لارا على الشاشة، ارتفعت معنوياتها. فأجابت الهاتف. واستمعت إلى لارا وهي تثرثر. قالت إنها كانت شديدة الانشغال في زيارتها الأخيرة إلى لندن؛ إذ كانت تسرع من اجتماع إلى آخر، ثم إلى مصفف شعرها المفضَّل لصبغه، ثم إلى طبيب العيون للحصول على عدسات لاصقة جديدة. وكان هناك أيضًا المزيد من الاجتماعات، وربما كانت ستخرج في موعد غرامي لاحقًا، على الرغم من أنها لم تكن متأكدة من أنها منجذبة إليه.

حاولت إيدي الرد بالمثل. حاولت أن تكون لطيفة، لكنها وجدت أنها لا تستطيع ذلك. شعرت بالخجل عندما سمعت نفسها تنطلق في خطاب من رثاء الذات حول مدى شعورها بالوحدة، ومدى شعورها بالإنهاك. وصفت كيف أنها لا تستطيع التركيز في الكتب، وكيف أن مشاهدة التليفزيون جعلتها أكثر بؤسًا. فأيًّا كان ما تشاهده، سواء كان كوميديا أو دراما أو فيلمًا وثائقيًّا عن الحياة البرية، كانت تجد نفسها راغبة في التوجه إلى جيك لمناقشته معه، مثلما كانت تفعل دائمًا.

جاء صوت لارا دافئًا بشكلٍ مطمئن. «هل تعرفين ما تحتاجين إليه يا إيدي؟ تحتاجين إلى رفيق. عليكِ أن تتبني كلبًا. هناك مأوًى في ...»

قالت إيدي: «أنا لست من محبِّي الكلاب.»

«حسنًا، لديهم قطط أيضًا. لا يمكنك الركض مع قطة، بالطبع، لكنها يمكن أن تسري عنك.»

«أنا لا أحب الحيوانات.»

«حسنًا.» بدت لارا محبطة.

«عدم حبي للحيوانات لا يجعلني شخصًا سيئًا.»

ضحكت لارا. «بالطبع لا! اسمعي، كنت أحاول فقط التفكير في شيء قد يبهجك ...»

ردَّت إيدي: «كنت أفكر في أن أجرِّب أحد البودكاستات الخاصة بك. حسنًا، إحدى قصصك. لقد تلقيت رسالة البريد الإلكتروني التسويقية الخاصة بعملك منذ بضعة أيام — بالأمس في الواقع — وكنت أظن أنَّ الاستماع إلى شيء ما قد يساعدني على النوم.»

«أجل، هذه القصص ممتازة لذلك. بأمانة، الكثير من الأشخاص أخبروني عن مدى تأثيرها المهدئ، كأن شخصًا ما يقرأ لك قصة ما قبل النوم. توجد قصة ... ما اسمها ... أجل، «الفرصة الرئيسية». إنها كوميديا رومانسية، مضحكة وتبعث البهجة في النفس. جربي الاستماع إليها.»

في تلك الليلة، بعد تناولها العشاء المكوَّن من الفاصوليا والخبز المحمص، أخذت إيدي حمامًا دافئًا، ورشت عطر اللافندر على وسادتها، وأوصلت هاتفها بمكبر الصوت الموجود في غرفة النوم، ثم ضغطت على الرابط الخاص بالقصة التي أوصت بها لارا. في الحادية عشرة والربع، أطفأت النور وسحبت اللحاف فوقها، مسرورة بوجود شيء آخر غير الأمواج والنوارس تستمع إليه. كانت القصة مضحكة، وكان صوت القارئ مرخيًا للأعصاب. لم تدرِ بعد ذلك إلا وهي تتقلَّب وتنظر إلى الساعة الموجودة على الطاولة بجانب سريرها، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحًا تقريبًا.

لقد نامت!

كان هذا بالنسبة إليها أشبه بالمعجزة.

الفصل الحادي عشر

جري، وأكل، ونوم، كان هذا هو ملخص يومها.

في ديسمبر، ازدادت هيمنة الظلام أكثر قليلًا كل يوم. بدا أن عالم إيدي بأكمله لا يتضمن سوى المنزل والغابة والطريق الساحلي، وكل ذلك قاتم ورمادي. لكنها كانت تسحب الهواء إلى رئتيها وتجري أسرع وإلى مسافة أبعد: ثمانية أميال، ثم تسعة، ثم عشرة. ظلَّت تجري حتى لم تعُد تقوى تقريبًا على الوقوف. كانت ترهق نفسها لكي تنام في الليل بمساعدة القصص.

في بعض الأحيان، كانت تستمع إلى القصة نفسها، مرارًا وتكرارًا؛ إذ تجد الراحة في سماعها مرة أخرى، لعلمها أنها لا تحتاج إلى متابعة حبكة جديدة، بل تستمع فقط إلى صوتٍ يهدِّئها للنوم. في بعض الأحيان، كانت القصص تتداخل بعضها مع بعض في أثناء نومها. وأحيانًا، كانت تنام وهي تستمع إلى صوت، وتستيقظ على صوت آخر.

هذا ما حدث لها ذات ليلة في أوائل ديسمبر: نامت وهي تستمع إلى رجل أمريكي يروي قصة ظريفة عن عائلة تعيش في ريف كاليفورنيا، واستيقظت، في الساعات الأولى من الصباح، على شيء مختلف تمامًا. صوت امرأة يروي قصة مختلفة، ويرسم مشهدًا مختلفًا. كان الصوت يصف منزلًا منعزلًا ومن خلفه صف من الأشجار، منزلًا حديثًا من الحجر الرمادي والخرسانة، وبه جدار زجاجي مواجه للبحر.

تسارع خفقان قلب إيدي.

وصف الصوت غرفة معيشة مفتوحة حيث توجد مدفأة حجرية، وكان ثمة كوة في المطبخ، بَنَى نورس فضي فوقها عشَّه.

فجأة جلست إيدي منتصبة في السرير. اندفعت يدها نحو هاتفها، لكنها لم تصبه فدفعت بالمصباح الموجود بجانب السرير إلى الأرض. أمسكت بالهاتف، وباستماتة مرَّرت

يدها على الشاشة لفتحه، بينما استمر الصوت واصفًا سطح الجرف المتآكل عند قاع الحديقة ... أخيرًا، تمكَّنت إيدي من إغلاق التطبيق. فصمت الصوت.

جلست ساكنة تمامًا بضع لحظات، وهي تضم هاتفها إلى صدرها. وتحت جلد معصمها، كان نبضها يرفرف كطائر أسير. كان عقلها يتسارع، وكانت تتجه نحو حافة الذعر. أخذت نفسًا عميقًا، وذكَّرت نفسها بأن هذا المنزل كان مستأجَرًا. في كل صيف، كان والد جيك يسافر إلى الخارج، وفي أثناء رحيله كان المنزل يؤجَّر للسياح. ولا بد أيضًا أنه كان لديه أصدقاء وزوار. ثم هناك الأشخاص الذين شاهدوا المنزل عندما كانت تحاول بيعه ...

تمكَّنت إيدي من تهدئة نفسها، وطمأنة نفسها بأنها كانت تبالغ في رد فعلها. لا شك أنَّ الأمر كان مريبًا، لكنه كان صدفة، محض مصادفة. شعرت بأنها سخيفة بعض الشيء، فقفزت من السرير لالتقاط المصباح، ثم صعدت مرة أخرى وأعادت فتح التطبيق. كان عنوان القصة التي كانت تستمع إليها «مكان خاص في الجحيم». وكان اسم الكاتب مكتوبًا بالأحرف الأولى فقط: جي إيه إل.

جال بخاطر إيدي أن تتجاهلها. أن تغلقها وتستمع إلى قصة أخرى.

غير أنها لم تستطع تجاهلها.

وضغطت على زر التشغيل.

> كان يومًا دافئًا من أيام يوليو. الباب الزجاجي الجرَّار الذي يطل على الجرف كان مفتوحًا. ورائحة البحر ونكهة الملح والأعشاب البحرية تتسلل إلى المنزل. وفي الداخل، ساد صمتٌ تامٌّ لمكان سُكِن مؤخرًا لكنه صار الآن فارغًا. المكان الذي كان مليئًا بالحياة أصبح الآن خاليًا. على الأرض كان يرقد رجل. أو ما كان رجلًا، وأصبح الآن جثة. كان لا يزال الدم ينساب ببطء من الجرح الموجود في رأسه، ذلك الشق الموجود في جمجمته حيث هوى جسم زجاجي ثقيل بقوة كبيرة.

كانت تحلم. كان هذا ما كان عليه الأمر؛ لا بد أنه كان كذلك. كانت في خضم واحد من تلك الكوابيس التي تبدو حقيقية للغاية، التي تراود المرء أحيانًا، عندما يحلم أنه قد استيقظ، لكنه يجد أنَّ أشياء غريبة تحدث. ذلك النوع من الأحلام الذي تعلم فيه أنك تحلم، وأن عليك أن تجاهد لإيقاظ نفسك.

لكنها لم تستطع إيقاظ نفسها.

جلست في سريرها والنور مطفأ، وعيناها مثبتتان على النافذة أمامها، على العدم بالخارج، واستمعت إلى صوت يروي لها قصة كانت تعرفها بالفعل.

وكانت القصة عن الانتقام.

مهدت الحلقة الأولى للأحداث: روزي فتاة ذكية اجتازت امتحانًا فلم تدفع أي رسوم في مدرسة خاصة في ريف ساسكس. كانت جميلة وبارعة وتتعرض للتنمر لأنها تنحدر من عائلة فقيرة وفوضوية. كانوا يطلقون عليها لقب الفقيرة. الفقيرة الجميلة! ومع تقدُّمها في السن والجمال، حظيت روزي باهتمامٍ متزايد، معظمه من الأولاد. الاهتمام أصبح مختلفًا الآن وتقبَّلته روزي كما لو أنه يُمنح بسخاء، وهو ليس كذلك. فثمة كتابات في جميع أنحاء جدران الحمام بشأن روزي، بشأن ما تفعله روزي، وأين، ومع مَن.

ثلاثة من زملائها في الفصل لم يشتركوا في هذا التنمر. هؤلاء الثلاثة — مايكل وجوش وإلين — نأوا بأنفسهم عن هذا. إنهم دائرة مغلقة، زمرة صغيرة منفصلة عن البقية. لكن أحد الولدَين — مايكل الوسيم — بدأ ينتبه إلى روزي. كان يبتسم لها بينما يمر بها في الردهة، وهو لا يبتسم شزرًا. إنما شيء آخر. فظنت أنه قد يكون مختلفًا.

في إحدى إجازات نهاية الأسبوع، كانت هناك حفلة في منزل أحد زملائها، واستجمعت روزي شجاعتها للذهاب. تحمَّلت التعليقات الدنيئة حول ملابسها الرخيصة وأقراطها المبتاعة من بريمارك، بإلهاء نفسها بالفودكا. وعندما ظهرت المجموعة المكوَّنة من ثلاثة أفراد، سلَّمت روزي عليهم. وتجاهلتها إلين، وابتعدت لتجلس في مكان ما بمفردها، لكنَّ الصبيَّين بقيا وتحدَّثا معها. شربوا المزيد من الفودكا. وفي مرحلة ما، قرروا الذهاب إلى الطابق العلوي واستكشافه. وجدوا طريقهم إلى غرفة نوم. أحدهما خلع قميص روزي، ورفع تنورتها، وسحب سروالها الداخلي إلى أسفل. وبدأ في تصويرها.

لم يعتقد أحد أن روزي — الفقيرة الجميلة — لم توافق على كل هذا. وسرعان ما رُفِضت ادعاءاتها بالاعتداء باعتبارها خيالًا، لا سيما عندما دعمت إلين قصة مايكل وجوش، وأقسمت أن الولدَين لم يكونا بمفردهما مع روزي قَطُّ.

الآن لم تعُد روزي فقيرة فحسب. ولم تعُد ساقطة فحسب. إنها كاذبة أيضًا. وهكذا أصبح التنمر أسوأ، وما زاد الأمر سوءًا، تداول صور لها، وهي عارية سكرى متجهمة، في الفصل. كسيرة تشعر بالخزي، توقفت روزي عن الذهاب إلى المدرسة. وتوقفت عن الأكل. وشربت نصف زجاجة من الفودكا وتناولت معها بعض حبوب الدواء.

لحسن الحظ، تعافت روزي. أنقذها المسعفون أولًا، ثم معالج جيد ومدرسة جديدة ومعلم عطوف. وتذكرت أنها ليست جميلة فحسب، بل ذكية أيضًا. فحصلت على درجات ممتازة، وذهبت إلى الجامعة، وتخلَّصت من صدمتها كثعبان يبدِّل جلده.

وذات يوم، بعد خمسة عشر عامًا ومئات الأميال من ليلة الحفلة، رأته روزي: رأت مايكل. كان يبدو كما هو، طويل القامة ووسيمًا، يمشي في الشارع متبخترًا. شاهدته وهو يدخل إلى حانة، ويتجه نحو طاولة، حيث كان يجلس جوش وإلين. الثلاثة جميعًا، معًا وبلا هموم، يعانق بعضهم بعضًا، ويضحكون، ويعيشون حياتهم السعيدة الخالية من اللوم. اجتاحتها موجة من الغضب الخالص المكبوتة منذ فترة طويلة، وقررت أن هذا لن يستمر.

الحلقة الثانية: في منتصف الليل، قادت روزي سيارتها إلى المنزل البعيد حيث يعيش جوش الآن مع إلين. ولما كانت تعرف أنَّ إلين بعيدة عن المنزل في مهمة عمل، اقتحمت المنزل وقتلته، بوحشية حطمت جمجمته بمزهرية زجاجية ثقيلة. وشرعت بعد ذلك في المهمة الصعبة المتمثِّلة في توريط مايكل في تهمة قتله. وفور أن أصبح مايكل خلف القضبان، ركزت على هدفها الأخير، الجائزة الحقيقية: إلين.

متجمدة من الخوف ومرتعبة إلى درجة أنها لا تستطيع التحرك، كانت إصبع إيدي تحوم فوق رابط الحلقة الثالثة، جاهزًا للنقر عليه. قالت في نفسها: سوف أستيقظ قريبًا بالطبع، هذا لا بد أن ينتهي بالتأكيد. ضغطت على الرابط وقلبها يقرع على ضلوعها. أصدر الهاتف رنينًا، وظهرت رسالة تقول: «ستصدر الحلقة الثالثة من هذه القصة في الثامن من ديسمبر! شكرًا على استماعكم!»

أغلقت إيدي عينيها، وغمرها الارتياح. لم يكن عليها أن تستمع. لم يكن عليها أن تعرف كيف انتهت القصة. اهتز هاتفها في يدها فانتفضت. نظرت إلى الشاشة. كانت رسالة نصية من رقم هاتف مجهول تقول:

«ما الخطوة التالية؟»

الفصل الثاني عشر

عندما بدأت الشمس في الشروق فوق البحر في ذلك الصباح، كان سرير إيدي مفروشًا بالأوراق والبطاقات والصور الفوتوغرافية. كانت تلك تذكارات من طفولتها وسنوات مراهقتها أخرجتها من صناديق الأحذية المخبأة في قاع خزانة الملابس. كانت تحمل بين أصابعها أقدم صورة استطاعت أن تجدها لنفسها مع جيك ورايان. كان الثلاثة يقفون في مدخل منزل والدَي جيك وقد انفرجت ساقا كلٍّ منهم وبينهما دراجته. كانوا يرتدون سراويل قصيرة وقمصانًا، وقد ضيَّقوا أعينهم من ضوء الشمس. لا بد أنهم كانوا في الثالثة عشرة تقريبًا.

نظرت إيدي إلى الصور وشعرت بالاحتواء، وغمرتها مشاعر الحب نحوهما، وكذلك غمرها الألم الذي خنق مشاعر الحب هذه. تحققت من هاتفها لما بدا كأنه المرة الخمسمائة، لمعرفة ما إذا كانت وصلتها أي رسائل أخرى. لمعرفة ما إذا كانت لارا قد ردَّت على رسائلها النصية، التي أرسلتها قبل ساعات في منتصف الليل، تطلب منها معاودة الاتصال في أقرب وقتٍ ممكن.

تحققت من الوقت أيضًا. أكان من المبكر جدًّا الاتصال بنيتا بادامي؟ كان عليها أن تخبرها أن رايان بريء! هذه القصة أثبتَت براءته! فهذه القصة كانت «اعترافًا».

كانت مشكلة الاتصال بنيتا أنَّ تفاصيل جريمة القتل كانت معروفة للجمهور بسبب التسريبات للصحافة. وكان من الممكن أيضًا أن يكون مَن كتب هذه القصة قد زار المنزل بصفته نزيلًا عن طريق موقع «إير بي إن بي» أو مشتريًا محتملًا. والمشكلة الحقيقية أن تفاصيل جريمة القتل لم تكن هي ما يثبت حقيقة الاعتراف، «بل الجزء الأول من القصة هو الذي يثبتها».

لأنَّه كانت هناك «حفلة» بالفعل عندما كانوا مراهقين. كان ذلك صحيحًا. وكانت هناك فتاة شقراء كبيرة النهدين؛ فتاة لها سمعة سيئة. كانت قد انخرطت في علاقات مع معظم الأولاد في الصف الدراسي الأكبر. وبعد ذلك، استهدفت رايان؛ إذ راحت تتبعه طوال الوقت، وتغازله برموشها. لم تكن إيدي تطيقها. جاءت الفتاة إلى الحفلة. وراحت تتقرَّب من رايان. وفيما بعد، ألَّفت قصة تقول فيها إنَّ رايان وجيك اقتاداها إلى غرفة نوم واستغلَّاها. قالت إنهما التقطا لها صورًا.

عندما استُدعيَت إيدي، في وقت الغداء يوم الإثنين التالي للحفل، إلى مكتب مدير المدرسة لتقديم روايتها للأحداث، كذبت كذبة بيضاء. قالت إنها كانت مع الولدَين طوال الليل. لم يكن ما قالته هو الحقيقة، لكن كان من الممكن جدًّا أن يكون هو الحقيقة. لم يكن رايان بحاجةٍ إلى «استغلال» فتاةٍ ما. كانت هناك فتيات يتودَّدن إليه طوال الوقت. وبالنسبة إلى جيك، فلم يكن يهتم إلا بإيدي فقط. فكلاهما بريء.

غادرت الفتاة المنحلة المدرسة بعد أسابيع قليلة من الحفلة، ولم يسمعوا عنها مرة أخرى. لم تخطر على بال إيدي بعد ذلك مطلقًا. والآن، وهي تقلِّب في الأوراق والصور الفوتوغرافية والتذكارات التي تعود إلى أيام دراستها، لم تتمكَّن من العثور على صورة واحدة للفتاة، ولا أي ذكر لها في مجلة المدرسة. وعلى الرغم من أنها حاولت جاهدة تذكر اسمها، فلم تستطع ذلك.

لكنها تعرف شخصًا واحدًا كانت متأكدة تمامًا من أنه لن ينساه أبدًا.

رايان.

الفصل الثالث عشر

تساءلت إيدي بينها وبين نفسها عما سيعتقده الناس لو استطاعوا رؤيتها الآن. لو استطاعوا أن يتبعوها وهي تتنقل عبر الحواجز الأمنية بالسجن، ويداها رطبتان ترتجفان، وعيناها مثبتتان على الأرض أمامها. الآن وهي ترفع ذراعيها للتفتيش الجسدي. ثم وقلبها ينبض بشدة لأنها قريبًا سترى، وللمرة الأولى منذ أشهر، الرجل المتهم بشقِّ جمجمة زوجها.

هل سيفترض الناس — مثلما افترض زملاء مدرستها السابقون على الفيسبوك — أنها كانت «متورطة في ذلك»؟ أهذا ما ستعتقده نيتا؟ لم تتحدث إيدي إلى نيتا بعد؛ لم تتحدث عن قصة البودكاست ولا عن هذه الزيارة. كانت قد قررت أنها في حاجة إلى التحدث إلى رايان أولًا.

بعد الخزانات، أُدخِلَت إيدي والزوار الآخرون — النساء حزينات الوجوه: الأمهات والبنات والزوجات والصديقات اللاتي خذلهن رجالهن أشد الخذلان — إلى غرفة الزوار. نظرت إيدي فيما حولها. شعرت بأنها لا تنتمي إلى هذه المجموعة. كان عليها أن تستمر في تذكير نفسها: «أنا لست مثلهن. أنا مختلفة. رايان لم يخذلني. رايان بريء.»

بحلول الوقت الذي أُحضِر فيه السجناء، كانت إيدي في قمة التوتر. وعندما رأته ظنَّت أن قلبها قد ينفجر. كان وجهه الوسيم مرهقًا وشاحبًا. لحيته ظهرت بها بقع رمادية لم تكن موجودة من قبل. وعندما اقترب، رأت أن لديه جرحًا في عظمة خده الأيسر، وحول عينه اليسرى كانت هناك مسحة خضراء تشي بكدمة قديمة.

ابتسم لها تلك الابتسامة المائلة المألوفة، وفجأة راح قلبها يدق بسرعة.

قال وهو يُميل رأسه إلى الجانب بينما يجلس في المقعد المقابل لها: «تبدين متعبة يا إي.» ظلَّت إيدي بضع لحظات غير قادرة على الكلام. حدقت إليه وشفتاها متباعدتان قليلًا. فقال: «كلا!» وتابع: «لا شك أنني لا أبدو بهذا السوء؟»

هزَّت رأسها. وقالت: «هل أنت ...» خرج صوتها كالنعيق وسعلت. نطقت مجددًا: «هل أنت بخير؟»

قال: «أنا أفضل حالًا بعد رؤيتك.» مدَّ يدًا ليصافحها عبر الطاولة. لم تأخذها إيدي، التي فاضت عواطفها فجمَّدتها في مكانها، فسحبها برفق، وضم يديه معًا على الطاولة. ظل صامتًا بضع لحظات. وبعدها نظر إلى أعلى، وقد بدا في وجهه الشعور بالأمل. قال: «ظننت أنكِ تخليتِ عني.» شعرت إيدي أنَّ قلبها قد ينكسر بالفعل. «هل تعلمين أن المحاكمة بعد ثلاثة أشهر؟ ثلاثة أشهر فقط ...» نظر في أرجاء الغرفة، وعندما التقت عيناه بعينيها مرة أخرى، استطاعت أن ترى أنهما تبكيان. «لم أفعل هذا. أنت تعلمين هذا. «محالٌ» أن أكون من فعل ذلك يا إيدي، أنت تعلمين ذلك.»

أخيرًا تمكَّنت إيدي من الكلام: «أجل. أعرف ذلك. أصدق ذلك الآن.»

خفض رايان رأسه وبدأت كتفاه تهتزان. ثم قال: «لا أستطيع أن أخبركِ كم يعني هذا بالنسبة إليَّ!»

راقبته إيدي لحظة وقد ضغطت بقبضتها على شفتيها لئلا تبكي. قالت بعد لحظات: «أنا أصدقك بالفعل، لكنني لا أفهم لماذا أخفيت عني أشياء، ولماذا كذبت عليَّ ...»

قال رايان وهو ينظر إليها بينما مرَّر إحدى يديه في شعره: «لم نكن نكذب. اسمعي يا إي، لقد كانت أشياء غبية؛ أشياء لم تكوني في حاجة إلى معرفتها ...»

همهمت إيدي وقد اتسعت عيناها: «أشياء غبية؟ لقد كانت الآلاف والآلاف من الجنيهات يا رايان! وأنا لا أعرف حتى أين ذهب أيٌّ منها؛ هو لم ينفقها عليَّ بالتأكيد، ولا على المنزل، ولا ...» بسطت يديها في ارتباك. وقالت: «ماذا فعل بكل هذا؟»

نظر رايان جانبًا للحظة قبل أن تلتقي عيناه بعينيها مرة أخرى. ثم قال: «لقد التحق بدورة لكتابة السيناريو. تلك الدورة التي قلتما إنكما لا تستطيعان تحمُّل تكاليفها، أتذكرينها؟ كان يحاول تحسين نفسه، والعودة مجددًا إلى المجال ... كما أنه قام ببعض الاستثمارات. كانت استثمارات خاسرة. حاولتُ إخباره أنه لا ينبغي له الدخول في تلك الأشياء الغريبة إلا إذا كان يستطيع تحمُّل خسارة المال، لكنه لم يستمع. لم يكن يريد أن يسمع هذا. على الأقل ليس مني أنا بالتأكيد.»

انحنى رايان إلى الأمام فوق الطاولة، متحدثًا بصوتٍ منخفضٍ. «لقد كان يشعر بالخزي، أتفهمين؟ كان جيك يشعر بالخزي لأنه ظل مضطرًّا إلى اقتراض المال مني.» انتصب في جلسته مرة أخرى. وتابع: «وقد تناقشت معه؛ قلت إنه لا ينبغي أن يخفي هذا عنك، لكنه رفض. لم يكن يريد أن يبدو صغيرًا أمامك. فوافقت على ذلك.» مدَّ يده مرة أخرى، وأخذتها إيدي هذه المرة، وقد ارتجف جسمها للمسته. شعرت بالاحمرار يتسلل إلى وجهها فنظرت بعيدًا. «دائمًا ما دعم أحدنا الآخر، أليس كذلك؟ إيدي؟ انظري إليَّ. لقد ساند بعضنا بعضًا على الدوام.»

لفترة طويلة، لم تقل إيدي شيئًا. عندما التقت عيناها أخيرًا بعينيه، سألته: «هل تتذكر تلك الفتاة التي كانت في المدرسة يا رايان، التي قالت إنك اعتديت عليها؟ تلك الفتاة التي كان الناس يطلقون عليها لقب الفقيرة؟»

رجع رايان بظهره في الكرسي، وعبس وجهه. «ماذا؟»

بادرت إيدي بالحديث: «ألا تتذكر؟ كنتُ أنا في الرابعة عشرة من عمري؛ لذا لا بد أنك وجيك كنتما في الخامسة عشرة. لقد ذهبنا إلى تلك الحفلة ...»

قاطعها رايان: «بلى، أتذكر ذلك. بالطبع أتذكر ذلك!» ثم أضاف هامسًا: «لقد قالت إنني «اغتصبتها». شيء كهذا لا يُنسى أبدًا.» ارتسمت على وجهه نظرة من خيبة الأمل. وقال: «لماذا تسألين عن ذلك؟»

«لا أستطيع حقًّا أن أشرح كل هذا الآن. ليس لدينا الكثير من الوقت، لكن من المهم بالنسبة إليَّ أن أعرف المزيد عن تلك الفتاة. أريد أن أعرف، هل تتذكر اسمها؟»

خرجت من رايان تنهيدة سريعة. وقال: «لويز. كان اسمها لويز جرانت.»

«لويز جرانت.» أجل، هذا هو اسمها! أعاد سماع اسمها ذكرى واضحة عن وقوف الثلاثة — جيك ورايان وهي — خارج بوابة المدرسة في وقت الغداء يوم الإثنين التالي لعطلة نهاية الأسبوع التي أُقيمَ بها الحفل. كان رايان يضع ذراعه حول كتفَي إيدي. وكان جيك متكئًا على السور، وفي يده سيجارة، والبؤس يكسو وجهه. كان رايان يقول لإيدي: «تلك الفتاة لويز، إنها تنشر عنا الأكاذيب والإشاعات. تقول إننا هاجمناها، واعتدينا عليها.» عينا رايان كانتا متسعتين خوفًا، ولهجته متوسلة. «عليكِ أن تساعدينا يا إي؛ يمكن أن نصبح في ورطة حقيقية.»

تذكرت إيدي أنها تحوَّلت ببصرها من رايان إلى جيك، لكن وجه جيك كان بعيدًا عن وجهها. تابع رايان: «أنت تعرفيننا. تعرفين أننا لا يمكن أن نفعل شيئًا من هذا القبيل. عليكِ أن تخبريهم يا إي. عليكِ أن تخبريهم أن هذا ليس صحيحًا.»

نظرت إيدي إلى رايان الآن، نظرت إلى الكدمة المحيطة بعينه، وإلى يديه حيث الأظافر مقضومة بشدة. كانت ستفعل أي شيء من أجله حينئذٍ، وستفعل الآن. غير أنَّ ثمة فكرةً ظهرت فجأة في خلفية عقلها. وقالت: «رايان، ثمة شيء واحد آخر فقط.»

«لقد كاد الوقت ينتهي يا إيدي، وأحتاج إلى ...»

قاطعته إيدي: «لقد رآك شخص ما. في اليوم الذي مات فيه جيك، ثمة شخص ما كان ينزِّه كلبه، رآك تركن سيارتك خارج المنزل قبل عشرين دقيقة من الوقت الذي أخبرت فيه الشرطة بأنك وصلت إلى هناك.»

ارتفع صوت رايان وأكمل: «ظننتُ أنكِ قلتِ إنكِ تصدقينني؟»

«لماذا كذبت عليهم؟ ماذا كنت تفعل خلال تلك العشرين دقيقة؟»

انحنى رايان إلى الأمام، ووضع مرفقيه على الطاولة، بينما راح يمسد رأسه بأطراف أصابعه. أخذ نفسًا عميقًا. وقال: «دار بيننا شجار حاد أنا وجيك، قبل يوم أو يومين من ذهابي إلى هناك. ولم نكن قد تحدثنا منذ ذلك الحين. لم أكن متأكدًا حتى مما إذا كان سيسمح لي بالدخول، أم لا. كنت أفكر فيما كنت سأقوله له.»

«أي شجار؟ أنت لم تخبرني بذلك قَطُّ. لقد كنتُ أقيم معك في ذلك الوقت يا رايان. لماذا لم تخبرني عن هذا الشجار؟»

هزَّ رايان رأسه وبدا قلقًا. وقال: «لأن الشجار كان بشأنك.»

احمرَّ وجه إيدي. وقالت: «ماذا تقصد؟» شعرَت بالحرج، لكنها كانت سعيدة أيضًا. لم تستطع قَطُّ أن تتخلص من ذلك الشعور؛ السرور الذي ينتابها من تنافسهما عليها.

التقت عينا رايان بعينيها، ولاحظ تعبير وجهها، وحرجها. نظر بعيدًا. هو أيضًا كان محرجًا. كان محرجًا «لها». ثم قال: «لم أقصد أنَّ الشجار كان عليكِ يا إيدي. كان بشأنك.»

تعمَّق احمرار وجه إيدي. «حسنًا، لا بأس. ماذا تقصد بأنه كان «بشأني»؟»

قال رايان وقد التقت عيناه بعينيها قبل أن تميلا بعيدًا: «أردت منه أن يكون صادقًا معك. بشأن المرأة التي التقى بها.»

أحسَّت إيدي بصوتٍ مندفعٍ في أذنيها، مثل صوت البحر، أو الريح في مرورها عبر أشجار الصنوبر خلف المنزل. شعرت كما لو أن الأرض تميل من تحتها. أمسكت بسطح الطاولة بكلتا يديها.

وقالت: «ماذا؟»

تنهد رايان. وقال: «كان على علاقة بامرأة أخرى يا إيدي. لقد رأيتهما معًا في حانة فندق بالمورال. كانا ... حسنًا، كان من الواضح أنهما في موعدٍ غرامي معًا. لقد كذب بشأن ذلك بالطبع. قال إنها منتِجة، لكنني أدركت أنه كان يكذب؛ كان متكتمًا جدًّا بشأنها، وكان غاضبًا جدًّا.»

ظلَّت إيدي برهة عاجزةً عن الكلام. وأخيرًا تمتمت: «لكن ... لماذا لم تخبرني بذلك؟»

نظر إليها رايان ثم رفع كفَّيه إلى الأعلى. وقال: «كيف كان لي أن أفعل ذلك يا إي؟ لم يكن من الممكن أن أفعل هذا به، ولا بك. ولم تكوني لتصدقيني قطُّ على أي حال. فدائمًا ما كانت لديك بقعة عمياء عندما يتعلق الأمر به.»

كانت إيدي في حيرة من أمرها، وتمتمت: «لكن ... كيف كان من الممكن أصلًا أن يلتقي بامرأة؟ لم يكن يغادر المنزل إلا نادرًا.»

ابتسم لها رايان ابتسامة في غاية الحزن. وقال: «التقى بها من خلالك. لا أستطيع أن أتذكر اسمها. لورنا؟ ربما لورا؟ هي تذهب إلى نادي الجري الذي تذهبين إليه.»

««لارا»؟»

«أجل، هذا هو اسمها. لارا.»

الفصل الرابع عشر

كانت هناك عاصفة قادمة.

حذَّرت نشرات الأخبار من طقسٍ سيبلغ أقصى درجات الخطورة؛ إذ إنه أُدرِج تحت فئة اللون الأحمر التصنيفية. إذ تنبَّأت بأمطار غزيرة ورياح تصل سرعتها إلى خمسين ميلًا في الساعة، وتبلغ سرعة هبَّاتها ثمانين ميلًا في الساعة. فلتأتِ العاصفة، هكذا قالت إيدي لنفسها وهي تنزل من الحافلة ذلك العصر. كان الظلام قد بدأ في إسدال ستاره. وكانت الرياح تهب بضراوة قبالة البحر. فلتأتِ العاصفة. فلتهدم المنزل، ولتطمر هذه البقعة اللعينة بأكملها في البحر.

كانت إيدي نفسها تشبه العاصفة؛ إذ اجتاحت أرجاء المنزل باحثةً عن أي أمارات تثبت كلام رايان. فتَّشت بدقة في غرفة مكتب جيك، وكبَّت محتويات مكتبه على الأرض. وأخرجت ملابسه من الخزانة، وشمَّت ياقات قمصانه علَّها تلاحظ رائحة عطر غريب، لكنها لم تميز إلا أثرًا ضعيفًا لرائحة جسده. وفحصت معاطفه علَّها تجد عليها شعرًا داكنًا وطويلًا يفضح سره. وفتشت كذلك جيوب ملابسه باحثة عن أي فواتير تُدينه. لكنها لم تجد شيئًا.

لارا؟ جيك ولارا؟ أيعقل ذلك؟

اتصلت إيدي برقم لارا عشرات المرات. وتركت عشرات الرسائل. كان مضمونها: اتصلي بي من فضلك. الأمر عاجل. أنا في حاجة ماسَّة إلى التحدث إليك يا لارا. لقد أجهدت ذهنها وهي تحاول استرجاع جميع المرات التي رأت فيها جيك ولارا معًا في نفس الغرفة. لم تكن تلك المرات كثيرة. تذكرت أنهم التقوا جميعًا مرة واحدة في المدينة لاحتساء مشروب. كما انضمَّت إليهما لارا لتناول العشاء في المنزل، بعد مشاركتهما في ماراثون نصفي معًا العام الماضي. وقتئذٍ، كانوا جميعًا قد أفرطوا في تناول الشراب. وخلد جيك إلى

النوم مبكرًا، تاركًا الاثنتين جالستين بالخارج تواجهان هجمات الهاموش. كان هذا هو كل ما في الأمر.

ألم يكن كذلك؟ تأمَّلت إيدي الحالات المزاجية التي كان فيها جيك على مدى الأشهر القليلة السابقة لوفاته؛ تذكرت نوبات ارتيابه، وغيرته الغريبة، وردة فعله عندما كانت تخبره بتلقيها لرسالة نصية من لارا. أكانت كل تلك التصرفات ردة فعل ناتجة عن تشوش مشاعره؟ ربما لم يكن ما يدفعه إلى التصرف بتلك الغرابة هو «عدم ثقته بها، بل شعوره بالذنب تجاهها».

وضعت على كتفيها أكثر معطف كانت تفضِّله من بين معاطف جيك، ولفَّته بإحكامٍ حول جسدها، ثم تجوَّلت بائسة في أنحاء المنزل مرة أخرى إلى أن وصلت إلى المطبخ. كان يوجد على منضدة المطبخ كيس بلاستيكي شفاف يحتوي على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بجيك. ما زالت الشرطة متحفظة على هاتفه، لكنها أعادت الكمبيوتر المحمول قبل أسبوعين. لم تجرؤ إيدي حتى على فتح الكيس منذ ذلك الحين. ولكن عندما نظرت إليه في تلك اللحظة، بدأ الأدرينالين يتدفَّق عبر جسدها مرة أخرى.

إذا كانت هناك بالفعل دلائل تشير إلى خيانته، فمن المنطقي أن تكون موجودة على جهاز الكمبيوتر، وليست مخفية بين فواتير الهاتف وخطابات الرفض التي كان يتلقاها من الشبكات التليفزيونية. إذا كانت تريد أن تعرف حقًّا ما كان يدور بحياة جيك قرب نهايتها، فينبغي أن يكون جهاز الكمبيوتر هو المكان الذي تفتش فيه. لكن السؤال المهم هنا كان: هل تريد أن تعرف ذلك «حقًّا»؟

نجحت في تخمين كلمة المرور الصحيحة لجهازه بعد بضع محاولات؛ إذ كانت تاريخ زفافهما. إنه لمن سخرية القدر أن يختار ذلك التاريخ، وهو التاريخ الذي تبادلا فيه نذور الزواج، ليخفي آثار ارتباطه بأخرى.

لكن إذا كانت توجد بالفعل أي دلائل، فإيدي لم تستطع إيجادها. فلم تجد شيئًا في رسائل البريد الإلكتروني الخاصة به؛ لم تجد أي رسائل مرسَلة إلى لارا أو واردة منها، أو حتى رسائل موجهة إلى أي امرأة سرية أخرى أو واردة منها.

فتحت إيدي المجلد الذي خصصه جيك للعمل، وأخذت تتصفح بسرعة أفكار المسلسلات التي دوَّنها، والمسوَّدات غير المكتملة للعروض التي كان ينوي تقديمها لمسئولي الشبكات التليفزيونية لتسويق أفكاره. وعثرت في المجلد المعنون «صور» على نسخٍ ممسوحة ضوئيًّا لصور زفافهما. كما وجدت صورًا التقطت في أثناء قضائهما لعطلة

في إيطاليا مع رايان قبل بضع سنوات، وبعض الصور كانت لنزهاتٍ لهما في الحديقة القريبة من مسكنهما السابق في لندن.

ووجدت إيدي داخل مجلد فرعي بعنوان «صور١»، مجلدًا اسمه «إل». انخلع حينئذٍ قلب إيدي. هيَّأت نفسها لرؤية أمر مشين — ربما صور لارا بملابسها الداخلية، أو ما هو أسوأ من ذلك، مقطع فيديو — ثم فتحت المجلد. لم يكن في المجلد سوى ملفَّين. الملف الأول كان صورة للارا، لكنها تخلو من أي إغراء. التقطت هذه الصورة للارا بعد مشاركتها في الماراثون النصفي الخاص بإدنبرة العام الماضي، وكان يحيط بها من الجانبَين في الصورة إيدي وجيك، وظهر ثلاثتهم في الصورة مبتسمين للكاميرا، ووجوههم موردة ومبللين بالعرق.

أما الصورة الثانية فلم تكن للارا على الإطلاق. بل كانت صورة مدرسية قديمة للفريق الرياضي بالمدرسة. إذا أمعنت النظر في الصورة، يمكنك رؤية إيدي في الصف الأمامي، والتي كانت قصة شعرها مفرطة الاستدارة كالطبق. وخلفها، في الصف الثاني، وقف رايان وجيك جنبًا إلى جنب، وذراعاهما مطويتان على صدرَيهما.

أغلقت إيدي الملف. ونهضت لكي تشغل غلاية الماء، بينما تسارع تدفُّق أفكارها. أزعجها أمرٌ ما في تلك الصورة. عادت إلى جهاز الكمبيوتر وفتحته مرة أخرى. انحنت إلى الأمام واستخدمت خاصية التكبير لتكبير الصورة. ها هي! في الصف الأمامي في الصورة، ظهرت بعد مكان جلوس إيدي بشخصين أو ثلاثة فتاة شقراء جميلة ذات عينين زرقاوين. تلك الفتاة كانت «لويز».

بدأ هاتفها بالاهتزاز داخل جيب بنطالها الجينز. أخرجت الهاتف ونظرت إلى الشاشة. وصلت رسالة من رقم مجهول.

«هل حللتِ اللغز بعد؟»

ثم تلتها رسالة أخرى:

«ما الخطوة التالية؟»

ارْتَجَّ جسد إيدي كأنها تعرَّضت لصدمة كهربائية. فتحت الصورة الأولى مرة أخرى. قارنت بين صورة لارا ذات الشعر الداكن الكثيف، والعينين الخضراوين، والذراعين المشوقتين، وصورة لويز الشقراء، ذات الجسد الممتلئ، والعينين الزرقاوين. لا. هذا غير ممكن. طنَّ صوت متسارع في أذنَي إيدي. شعرت كما لو أنها كانت تتهاوى. حدقت إلى

صورة لارا التي اعتادت الذهاب إلى لندن مرة واحدة على الأقل في الشهر؛ لأن بها متخصص صبغ الشعر الوحيد الذي تستطيع أن تأتمنه على شعرها. لارا التي كانت ترتدي العدسات اللاصقة. لارا التي اعترفت ذات مرة، في نهاية إحدى الأمسيات التي قضتاها معًا في الحانة، بأنها كانت ممتلئة في أثناء سن المراهقة، وأنها بذلت جهودًا مضنية ليصبح قوامها كما هو عليه الآن. كانت لارا ولويز موجودتين جنبًا إلى جنب الآن داخل مجلد أنشأه جيك وأطلق عليه اسم «إل».

رنَّ هاتف إيدي مرتين. حدقت إليه، وكانت مرتعبةً جدًّا إلى درجة كادت تمنعها من الإمساك به. وصلت رسالتان أخريان من نفس الرقم المجهول. فتحت الرسالة الأولى. كانت الرسالة عبارة عن صورة. استغرق تنزيل الصورة ثانية واحدة. ثم رأت أنها نفس الصورة المدرسية، ولكن في هذه النسخة من الصورة كان وجه جيك مشطوبًا. ووجه رايان أيضًا. أما الرسالة الثانية فكانت عبارة عن جملة واحدة:

«هناك مكان مخصص في الجحيم للنساء اللاتي لا يساعدن غيرهن من النساء.»

أسقطت إيدي الهاتف من يديها كما لو أن ماءً مغليًّا لَسَعها، وفي اللحظة التي اصطدم فيها بالطاولة بدأ يرن، وجعلته الاهتزازات يدور حول نفسه. رجعت بخطواتها إلى الخلف، وقد ملأ قلبها الرعب فلم تقوَ على الرد، وارتعبت حين دوَّى صوت الرعد المهيب في أرجاء المنزل. مدَّت يدها وأمسكت الهاتف، ثم ألصقته بأذنها بإحكام. فسمعت صوت أنفاس. لكنها للحظة لم تكن متأكدة مما إذا كانت تلك أنفاس مَن يهاتفها أم أنفاسها هي. ثم تحدثت امرأة قائلة:

«هل حللتِ اللغز بعد؟ هيا أخبريني! ما الخطوة التالية؟»

الفصل الخامس عشر

كانت العاصفة تزداد جموحًا. وقذفت الرياح حفنات من مياه المطر ورذاذ البحر على نوافذ المنزل بعنف. وأتى صوت عواء الرياح من ناحية أيكة الأشجار خلف المنزل، حتى إنه قد يُخيَّل إلى سامعه أن أغصان الأشجار تنثني إلى درجة أنها توشك على الانكسار، أو أن جذوعها تقتلع من الأرض.

عندما هدأت الرياح للحظة، نطقت إيدي أول كلمة. إذ قالت وقد ألصقت الهاتف بأذنها: «لويز؟» ثم أخذت تمشي مسرعةً في الرواق، وشعرت بالخوف كأنه شوكة توخز جسدها. جرت نحو غرفة النوم ثم صعدت إلى السرير، وشدت اللحاف عليها. قالت مرة أخرى: «لويز؟» ثم أعقبت بسؤال آخر: «أهذا أنتِ؟»

قالت المتحدثة: «ناديني باسم لارا.» وأضافت: «لقد فقدت صلتي باسم لويز منذ اثني عشر عامًا. لقد غيَّرت اسمي بعد خروجي من المستشفى.» توقفت برهة عن الكلام. وفي برهة الصمت تلك، سمعت إيدي صوت نقرة وهسهسة قداحة سجائر. أكملت: «كنت مريضة. لا أدري إن كنتِ على علمٍ بذلك أم لا. حسنًا، أنتِ الآن تعلمين، لأنني كتبت عن مرضي في القصة. لقد حاولت الانتحار؛ لذلك عزلوني في المستشفى.»

صمتت مرة أخرى. ثم قالت: «هل أعجبتكِ القصة؟» كان صوت لارا مبتهجًا بشكلٍ غريب، كما لو كانت مستمتعةً بوقتها. «أظن أنها قصة جيدة جدًّا بالنسبة إلى كونها أولى محاولاتي في الكتابة الروائية. أم أنه يجوز أن نسميها في هذه الحالة كتابة واقعية غير روائية؟ أيًّا كان. الأجزاء الأولى من القصة لم تتطلب مني مجهودًا لأن أحداثها حصلت بالفعل، لكن الجزء الذي أواجه مشكلة فيه هو النهاية. وأعتقد أنكِ يمكن أن تساعديني في ذلك.» ضحكت لارا، وأصاب صوت ضحكتها الحاد إيدي بالقشعريرة.

قالت إيدي: «ماذا تريدين يا لارا؟»

ردَّت لارا: «أريد أن أحْبِكَ النهاية جيدًا! لقد عملت على هذه القصة لعامَين تقريبًا. لقد كان عملًا يدفعه الشغف.»

سألت إيدي: «أكنتِ تخططين للأمر منذ أن تقابلنا؟»

ردَّت لارا: «تقصدين منذ أن «التقينا مرة أخرى». قبل ذلك، كنت منشغلة بحياتي فقط، وراضية بدفن الماضي. لقد تجرعت كئوسًا من البؤس وتألمت عظيم الألم. لكنني استطعت انتشال نفسي من ذلك الوضع إلى وضعٍ أفضل؛ فتمكَّنت من تأسيس مشروعي التجاري، والانتقال إلى مدينة جديدة، إلى مكان لم تلوثه الذكريات المؤلمة. وشاءت الأقدار أن ذهبت يومًا لمقابلة زملائي في نادي هواة الجري وتفاجأت بوجودك هناك، كأنك شيطان لحق بي من أعماق الجحيم. إيدي إيستون ...»

قاطعتها إيدي قائلة: «تقصدين إيدي «بريتشارد».»

أردفت لارا: «نعم، بالطبع. إيدي بريتشارد التي تزوجت حبيب طفولتها. أو بالأحرى واحدًا من حبيبَي طفولتها.»

قالت إيدي بصوتٍ منكسر: «وقررتِ حينئذٍ أن تأخذيه مني، أليس كذلك؟»

قالت لارا: «ليس على الفور. في البداية، كنت لا أزال تحت تأثير صدمة لقائك. في المرة الأولى تلك التي التقيتُ بكِ فيها في أثناء تجمُّع أعضاء نادي هواة الجري، ظللت مترقبة للحظة التي ستدركين فيها من أكون. انتظرت رؤية نظرة اندهاش في عينيك، أو ارتسام تعبير على وجهك يوحي بشعورك بالخزي، لكن تلك اللحظة لم تأتِ قَطُّ. نظرتِ إليَّ كأنني غريبة تمامًا. وظللتِ واقفة هناك، تبتسمين ابتسامتك البلهاء ...»

في اللحظة التي قالت فيها لارا جملتها الأخيرة، سمعت إيدي صوت قعقعة، كأن هناك قطارًا مارًّا، وغاب صوت لارا للحظة. استطردت لارا: «لقد دمرتِ حياتي ثم ألقيتِ بي في بئر النسيان، أليس كذلك؟ لاحقًا، قابلت زوجك، ولم يتذكرني هو الآخر. كأن شيئًا لم يكن، كأن لويز — تلك الفتاة البائسة، والساذجة التي لم يصادقها أحد — لم يكن لها وجود من الأساس. حينئذٍ قررت أن الوقت قد حان لأذكِّركما بي.»

«ثم ... بدأتِ في «إغوائه»؟»

ضحكت لارا. وقالت: «أوه، أثار ذلك غيظك، أليس كذلك؟ من الغريب أن هذا ما يضايقك! ولم يضايقك أنني قتلته، وهشَّمت رأسه، أنت متضايقة فقط لأنني ضاجعته.» وأتبعت قولها بنفس الضحكة القاسية. ثم أضافت: «أنتِ حقًّا تافهة، أليس كذلك يا إيدي؟ على العموم، لا تشغلي بالك بهذا الأمر. لم أضاجعه. لكنني أوهمته بأنني قد أرغب في

مضاجعته يومًا ما. لكنه» — أصدرت صوتًا خفيضًا ينمُّ عن اشمئزازها — «بصراحة لم يكن فرصة جاذبة تستحق الاغتنام، أليس كذلك؟ لقد كان رجلًا مفلسًا، وفاشلًا، ومحبطًا من معاملة زوجته المريعة التي كانت على وشك الهرب مع صديقه المقرب …»

قالت إيدي: «إياكِ أن تجرئي على التحدث عن جيك بهذه الطريقة، إياكِ …»

قاطعتها لارا قائلة: «عجبًا يا إيدي؟ لماذا لا تريدينني أن أصفه بالفاشل؟ ألم تصفيه «أنتِ» بذلك؟»

جفلت إيدي. وقالت: «لم أكن على وشك الهرب. لم أكن لأترك جيك أبدًا.»

قالت لارا: «بأي لغوٍ تنطقين؟ لقد تركتِه بالفعل!»

ردَّت إيدي: «لم أكن أنوي تركه «إلى الأبد». كل ما في الأمر أن علاقتنا كانت تمر بفترة صعبة. كنت أنوي الرجوع إليه …»

سألت لارا: «لأنكِ أحببته كثيرًا، أم لأن رايان لم يكن يريدك؟» وأكملت: «لا أظن أن جيك كان سيسمح بعودتك على أي حال. أتعلمين أنني عندما كنت أحاول زرع بذرة الشك في نفس جيك — بشأن علاقتك أنت ورايان — توقعت أن أضطر إلى بذل جهد أكبر من ذلك قليلًا. لكنه صدَّق كل شيء كنت أقوله له. وعندما أخبرته أنك لم تعودي تحضرين فعاليات الجري، صدَّق جيك ذلك. وعندما أخبرته أنك تتحدثين عن رايان طوال الوقت، صدَّق ذلك أيضًا. لقد صدَّق كل شيء من الأشياء الشنيعة التي قلتها عنكِ بكل أريحية. لم أستطع قطُّ تحديد السبب الذي منعه من محاولة الدفاع عنكِ. هل السبب أنه لم يكن يحبك؟ أم لأنه شعر بالذنب الشديد بسبب ما فعلتِه بي أنت وهو؟»

للحظة، انعكس وميض البرق على صفحة البحر. انكمشت إيدي تحت لحافها. وقالت: «أتقصدين بذلك أن جيك اكتشف أمرك؟ أتعنين بقولك هذا أنه عرف حقيقتك؟»

ردَّت عليها لارا قائلة: «لم يكن جيك قطُّ بنفس درجة ضيق أفقِك، أليس كذلك؟ أتتذكرين عندما أتيتُ إلى منزلك بعد فعالية الماراثون النصفي وجلست معكما بالخارج؟ كنا نشرب النبيذ بالخارج وعجَّ الهواء بالهاموش. عندما دخلتِ إلى المنزل لجلب المبيد المقاوم للحشرات، لمحتُه وهو يحدق إليَّ خلسة. ظننته على وشك مغازلتي. لكن سرعان ما رأيتها؛ رأيت نظرة رعب في عينيه. نظرة رعب وخزي. أخيرًا رأيتها! راسلني عبر الواتساب بعدها بيومين قائلًا إنه يريد التحدث معي. التقينا في حانة بالمورال. جلس هناك، وأخذ يتجرع الشراب ويغرق في شعوره بالشفقة على نفسه، متوسلًا إليَّ لأصفح عنه …»

فجأة، صاحت إيدي صيحة اخترقت سكون هذه الليلة الظلماء: «أنا لا أصدق ذلك!» تابعت صياحها: «أرفض تصديق ذلك! جيك لم يغتصبك يا لارا …»

ردَّت عليها لارا بصوتٍ صار منخفضًا وأجش على نحوٍ يشبه الصوت الموجود في القصة: «لا.» وتابعت: «أنتِ على حق. جيك لم يغتصبني. لكنه كان موجودًا في الغرفة عندما اغتصبني رايان.»

كان هناك ضجيج غريب مسموع في الهاتف، صوت هسهسة، ثم انقطع الاتصال فجأة.

الفصل السادس عشر

شعرت إيدي باضطرابٍ شديدٍ في معدتها. وارتجفت وهي تغمض عينيها بشدة. بدأت تسترجع في ذهنها أحداثًا من الماضي، فرأت كاميرا. وسمعت في خيالها صوت رايان وهو يستجديها بصوتٍ خفيضٍ. قال: «تقول لويز إننا هاجمناها واعتدينا عليها. يمكن أن نصبح في ورطة حقيقية.» تذكرت جيك وهو يدير وجهه بعيدًا عنها.

كانوا جميعًا ثملين. فلقد كانوا يشربون بالفعل حتى قبل أن يصلوا إلى مكان الحفلة. كانت إيدي قد سرقت زجاجة فودكا من خزانة المشروبات الخاصة بوالديها. وكانوا يحتسون هذا الشراب في غرفة الجلوس، وثلاثتهم يجلسون على الأريكة الضيقة، ويشاهدون الأغاني المصورة.

أراد رايان، الذي كان يلهو بالكاميرا التي أُهديَت له بمناسبة عيد ميلاده، الذهاب إلى الحفلة. أما إيدي فقد كانت تفضِّل لو ظل ثلاثتهم في منزل جيك. حينئذٍ كان انقضى شهر منذ بدأت هي وجيك يتواعدان. بالنسبة إلى إيدي، كانت هذه العلاقة تثير فيها شعورًا بالحماس لأنها جديدة بطبيعة الحال، لكن هذا الشعور لم يكن يضاهي شعورها حين ضبطت رايان وهو يراقبهما. بل بالأحرى يراقبها. كان رايان مصممًا على الذهاب إلى هذه الحفلة، ولم تكن إيدي تريد أن توصَم بأنها مفسِدة للملذات — أو أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك، وهو أن يتركاها ويذهبا من دونها. انطلقوا إلى وجهتهم، وشقوا الطرق المظلمة راكبين دراجاتهم. في لحظة من اللحظات كاد جيك أن يصطدم ويقع بقناة مائية. ضحكت إيدي عليه هي ورايان ووصفاه بأنه ضعيف أمام تأثير الشراب.

أقام الحفلة شخص في نفس السنة الدراسية لإيدي، كان غنيًّا ووالداه مسافرَين. عندما وصلوا، تجاهلهم الجميع. الكل تجاهلهم ما عدا «الفقيرة» التي تقافزت نحوهم فور وصولهم، ولم تكن مرتدية حمالة صدر تحت قميصها الأبيض، وأخذت تدفع بجسدها

نحو رايان. تذكرت إيدي هذا الجزء بوضوح. تذكرت كيف ابتسم رايان للويز. وكيف كان يضحك بصحبتها. تذكرت أنه عرض عليها أن تأخذ رشفة كبيرة من الزجاجة التي جلبتها إيدي. وتذكرت الطريقة التي أطبقت بها لويز شفتَيها الورديتَين على حافة الزجاجة. لقد انهمكت في مراقبة لويز ورايان. وشعرت بأن جيك يراقبها هو الآخر، وبأن الأمسية بأكملها قد تعكر صفوها. فأرادت الذهاب الى المنزل. واتجهت نحو المطبخ، تاركة الشابَّين برفقة لويز. التفتت إلى الوراء ونظرت خلسة فوق مستوى كتفها لترى ما إذا كان أحدهما سيتبعها. لكنْ كلاهما لم يفعل ذلك.

لاحقًا، وبعد مرور ساعة أليمة ظلَّت أثناءها إيدي واقفة وظهرها مستند إلى جدار المطبخ، على أمل أن يتحدث معها أحد — أي أحد — قررت إيدي العودة إلى الخارج والبحث عن الشابين. سارت عبر غرفة المعيشة، ومن هناك انتقلت إلى غرفة المكتب. ورأتهما إيدي عندما نظرت من نافذة الغرفة واقفين على العشب. ظنَّت للحظة أنهما ذاهبان إلى المنزل، وأنهما سيتركانها، فأسرعت بالخروج عبر الباب المؤدي نحو الشرفة.

عندما خرجت، استطاعت سماعهما وهما يتبادلان الصراخ، وأدركت أنهما كانا يتشاجران. شعرت بوخزة حادة في جسدها نتيجة اندفاع الأدرينالين: كان هناك شيء ما يحدث، شيء «مثير». رأت رايان يمسك بياقة سترة جيك، وجيك يصارعه ليفلت من قبضته. كانت تحاول سماع ما يقوله أحدهما للآخر، ولكن كان هناك ضجيج آخر يشوش على سمعها. التفتت نحو مصدر الصوت فرأت فتاة تجلس على الأرض، في زاوية الشرفة، تنورتها مرفوعة إلى أعلى، وسروالها الداخلي ظاهر، وكانت تبكي كما لو أن قلبها على وشك الانفطار. خطت إيدي خطوة نحوها فتطلعت إليها الفتاة. كانت الفتاة هي لويز وكانت عيناها الزرقاوان الكبيرتان ممتلئتين بالدموع، وقد تلطخ وجهها الجميل بالمسكرة. أشاحت إيدي بنظرها بعيدًا عنها. راقبت جيك وهو ينتزع كاميرا رايان من يديه ويلقيها بعنفٍ على الأرض.

رنَّ هاتف إيدي مرة أخرى. قالت لارا عندما أجابت إيدي: «أعتقد أن الاتصال قد انقطع.»

قالت إيدي: «لم أكن أعرف ما حدث في الحفلة. كيف كان في مقدوري أن أعرف؟ أنا لم أكن هناك. لم أكن موجودة في الغرفة عندما … حدث أيًّا كان ما تدَّعين أنه قد حدث …»

قالت لارا: «لكنكِ قلت إنكِ تعرفين ما حدث. أو بالأحرى، قلتِ إنكِ تعرفين أنه لم يحدث أي شيء؛ لأن هذَين الشابَّين لم ينفردا بي إطلاقًا. لقد كذبتِ.»

قالت إيدي: «لم يكن من الممكن أن أكون متيقنةً من الأمر …» قاطعت كلامها صاعقة باهرة من البرق وَمَضت بقوة على مسافة قريبة جدًّا لدرجة مثيرة للقلق. شهقت إيدي من شدة الخوف. وبالمثل سُمعت شهقة لارا على الناحية الأخرى من الخط. وبعد ذلك سُمع صوت الرعد المهيب، الذي هزَّ دويه المنزل بأكمله. وأدركت إيدي في تلك اللحظة أن صوت الرعد الذي سمعته للتو لم يكن مسموعًا في غرفتها فحسب، بل إنها سمعته عبر الهاتف أيضًا.

رفعت بصرها. لم ترَ بالكاد في الظلام سوى ستارة الغرفة وهي تتمايل وتموج كما لو الرياح قد وصلت إليها. وسمعت صوت الأمواج وهي تتلاطم على الجرف في الخارج. وشعرت فجأة ببردٍ شديد، وأحسَّت بأن الخوف ليس هو السبب الوحيد الذي جعلها تشعر بهذا البرد القارس. بل كان السبب هو هبَّة هواء لاسع البرودة. وأدركت حينئذٍ أن شخصًا ما قد فتح الباب.

شخص ما كان في المنزل.

بدأت تتحرك في اتجاه باب غرفة النوم، وقد أصابها الدوار من فرط الرعب، وأمسكت الهاتف بيدها بإحكام. فتحت الباب وألقت نظرة على الرواق. وتكاثف الظلام من حولها وأصبح أقوى وأكثر انتشارًا.

نادت: «لارا؟ هل أنتِ هنا؟» زاد الخوف الذي سمعته في صوتها من رعبها. تقدمت بخطوات صغيرة إلى الأمام، وهي تمشي بحذرٍ بالغ بطول الرواق. ثم قالت: «أعرف أنكِ هنا.»

عندما وصلت إلى مدخل غرفة المعيشة، لاحظت وجود بركة صغيرة من الماء على الأرض أمام الباب الجرَّار الذي كان المطر المنهمر يدخل منه. حاولت أن تمنع نفسها من الإجهاش بالبكاء، وبدأت في الاتصال بالشرطة. كانت تضغط على ثاني رقم، وهو الرقم ٩، عندما شعرت فجأة بتغير شيء ما حولها؛ فقد رأت ظل شخص يندفع فجأة تجاهها. مالت إلى الوراء لتتفاداه، لكن الأوان كان قد فات؛ كان الدخيل قد انقض عليها، وأمسك بذراعها ولواها خلف ظهرها. وصرخت إيدي بينما وقع الهاتف من يدها. وشعرت بضربة على مؤخرة رأسها أسقطتها على ركبتيها، وهي تصرخ من شدة الألم.

الفصل السابع عشر

كان الألم الذي شعرت به إيدي في رأسها مختلفًا عن أي ألمٍ شعرت به من قبل، فلقد كان حادًّا وشديد التركيز في الجزء الخلفي من جمجمتها، ووصل إلى أقصى درجاته في المقدمة فسبَّب إحساسًا بالضغط والخفقان داخل رأسها. شعرت إيدي كما لو أن شخصًا ما قد وضع صدغيها بين جانبَي مِلزَمة وبدأ يدير مقبضها. وشعرت كأن كتفها قد خُلعت من تجويفها. حاولت التحرك لتخفيف الألم، لكنها وجدت أن يديها مقيدتان خلف ظهرها. وعندما رفعت رأسها، رأت انعكاس وجهها، وبدت عيناها أكثر سوادًا بالمقارنة بشحوب خديها.

كانت الأنوار مضاءة. وكانت إيدي تجلس على أحد كراسي غرفة الطعام، في مواجهة الباب الجرَّار الذي صار مغلقًا الآن. أدارت رأسها ببطء في اتجاه اليمين واليسار، لكنها لم تلحظ وجود أي شخص. ولم تسمع صوت أي شخص أيضًا، وبدا أن العاصفة قد هدأت. كان الصوت الوحيد المسموع في الغرفة هو صوت تنفُّسها المضطرب.

ثم أتى صوتٌ آخر من خلفها. صوت تثاؤب.

سمعت إيدي نقرات كعبين على الأرضية الخرسانية وصوت شخص يسألها: «هل أفقتِ؟» ثم أكمل: «لقد كنتِ غائبة عن الوعي لبعض الوقت. ظننت أنني سأضطر إلى هزك لإيقاظك.» رأت إيدي بطرف عينها شكل جسد. كان جسد لارا. جثمت لارا بجانب إيدي حتى أصبح نظرهما على نفس المستوى. سألتها وهي تجعد أنفها: «كيف حالك؟ تبدين في حالة مزرية. أتريدين بعض الماء؟»

لم تنتظر منها لارا إجابة، ووقفت ثم مشت إلى المطبخ وكعباها يطقطقان. سمعت إيدي الصنبور يُفتَح ويُغلَق، وبعدها بلحظة وقفت لارا أمامها، ووضعت كأس الماء البارد

على شفتيها ضاغطةً عليهما. ارتشفت إيدي الماء وابتلعته. ونزلت بضع قطرات من الماء على ذقنها.

جرَّت لارا كرسيًّا على الأرض ووضعته مقابل إيدي. جلست، وأرجعت كتفيها إلى الخلف كعادتها، وأمالت رأسها من جانب إلى آخر كما لو كانت تقوم بتمرين إحماء استعدادًا للجري. أو للقتال. نظرت إلى الوراء فوق مستوى كتفها. وقالت: «أظن أن العاصفة هدأت.» لم تقل إيدي شيئًا. وأغمضت عينيها في مواجهة الضوء. تابعت لارا: «أليس من المضحك أن انتهت بنا الحال هنا؟»

أجابت إيدي: «ما الذي تقصدينه بكلمة هنا؟ أتقصدين كوني مقيدة بكرسي هنا؟»

ضحكت لارا ضحكة خافتة. وقالت: «لا، أقصد هنا. في اسكتلندا. في مكان يبعد بمسافة طويلة عن مقاطعة ساسكس المشمسة.» سمعت إيدي صوت نقرة وهَسهَسَة مألوفًا ثم فتحت عينيها. فرأت لارا تشعل سيجارتها. ابتسمت لارا لإيدي. وقالت: «ليس لديكِ مانع أن أدخن، أليس كذلك؟» ردَّت إيدي على سؤالها بحملقة غاضبة. فسألتها لارا: «لماذا انتقلتما إلى هنا بالمناسبة؟»

استنشقت إيدي نفسًا ملأ رئتيها بالدخان المنبعث من سيجارة لارا ثم بدأت بالسعال. رمقتها لارا بنظرة امتعاض، ثم أخذت في إزاحة الدخان بيدها الأخرى التي لم تكن ممسكة بالسيجارة.

قالت إيدي: «لقد انتقلنا لأننا كنا في حاجة إلى هذا المنزل. أنت تعلمين هذا الأمر. لم يكن لدينا أموال. ولم نتمكَّن من تحمُّل تكاليف السكن في أي مكان في لندن. حينئذٍ لم يستطع جيك إيجاد أي فرصة عمل، ثم تُوفي والده. حكيت لك هذا الأمر من قبل ...» بدأت تسعل مجددًا، وتركز الدخان بأسفل حلقها. سحبت لارا الهواء ومرَّرته من خلال صفَّي أسنانها المطبقين لتصدر صوتًا عبَّر عن نفاد صبرها وامتعاضها، ثم ألقت بالسيجارة على الأرض وداست عليها بكعب حذائها. أمسكت كوب الماء وعرضته على إيدي مرة أخرى.

سألت لارا إيدي بعد أن تناولت الأخيرة رشفة من الماء: «ماذا عن رايان؟ متى تبعكما إلى هنا؟»

ضيَّقت إيدي عينيها ونظرت إلى لارا. وقالت: «لم يتبعنا. لقد تلقَّى عرض عمل جيدًا؛ ولذلك انتقل إلى هنا.»

أطلقت لارا ضحكة صاخبة قليلًا. وقالت: «حقًّا؟ أتصدقين أنه ترك عمله في مدينة كبيرة مثل لندن، وقرر القدوم إلى إدنبرة على أساس أنها معقل مهم لنشاط رءوس الأموال

المخاطرة؟ هل أنتِ حقًّا بهذه الدرجة من الغباء؟ أم أن اعتقادك هذا مجرد مثال آخر على أنك دائمًا لا ترين سوى ما تريدين رؤيته؟ لقد أخبرني جيك أن رايان قدِم إلى هنا ليلحق بك.»

قالت إيدي نافية: «هذا ليس صحيحًا.»

قالت لارا: «لقد أخبرني جيك أن رايان تبعك إلى هنا لأنه يحتاج إليك. لأنه كان يحتاج إلى شخص متيم به كما فعلت أنتِ. لأنه لم يصادف قَطُّ أي شخص في حياته، منذ أن صار بالغًا، متيمًا به بنفس تلك الطريقة. فالناس كانوا يعرفون أن معدنه الحقيقي متخفٍّ تحت غطاء من المكر والاصطناع. لقد رأوه على حقيقته. مجرد متنمر ونرجسي.»

قالت إيدي: «هذا محض هراء ...»

قالت لارا: «أهو محض هراء فعلًا؟ ألم تتساءلي يومًا لماذا لم يبقَ رايان في أي وظيفة أكثر من عام؟ ولماذا لم تستمر علاقاته بمن ارتبط بهن أكثر من بضعة أشهر؟» أسندت لارا ظهرها إلى كرسيها، وعلى شفتيها أثر ابتسامة. وأضافت: «أوه. فهمت طريقة تفكيرك. لقد كنتِ تظنين أن السبب في ذلك هو أنه كان مغرمًا بك، أليس كذلك؟ لقد اعتقدتِ أن علاقاته لم تدُم بهؤلاء النساء لأنه لم توجد بينهن واحدة أمكنها أن ترقى إلى مستواكِ.»

حاولت التحرك وهي جالسة على الكرسي. ورغم حدة الألم الذي كانت تشعر به في كتفها، فإنها هينة مقارنة بالعذاب الذي أحسَّت به في أثناء جلوسها تحت رحمة نظرات لارا القاسية.

قالت لارا: «أتتذكرين تانيا؟ صديقة رايان القديمة منذ بضع سنوات؟ أتعرفين لماذا لم تستمر علاقته بها؟ سأساعدك؛ لم تنتهِ العلاقة بسببكِ. بل لأن رايان ضربها وحاول خنقها. جاءت تانيا إلى جيك طالبةً المشورة منه، فنصحها بأن تبلغ الشرطة. لم تفعل ذلك بالطبع، لأنها تعرف أن الشرطة لن تأخذ صفَّها من دون أدلة. وفي تلك الفترة، كان من السهل أن يفلت الرجال بأي فعلة تقريبًا بحجة أنها ارتُكبت تحت مسمى الجنس العنيف. لذلك لم تتخذ أي إجراء. وابتعدت عنه. لكن اللافت في الأمر أن جيك صدَّقها. وعندئذٍ قرر أن عليه الابتعاد عن رايان إلى الأبد. عندئذٍ قرر أن عليه إبعادك عن رايان إلى الأبد.»

هزَّت إيدي رأسها لتنفي هذا الادعاء، واستمرت في هزه. وقالت: «لا، هذا الأمر لم يحدث. لو كان حدث بالفعل لكان أخبرني به جيك ...»

أمالت لارا رأسها إلى أحد الجانبين. وقالت: «أحقًّا كان سيفعل ذلك؟» وأكملت: «لماذا تظنين أنه كان سيخبرك بذلك؟ لقد تعلَّم الدرس منذ زمن طويل، والدرس هو أنكِ لن تسمحي بأي كلمة تقال ضد رايان ما حييتِ. أتعرفين ماذا قال لي؟ قال لي: «رايان لم يضطر قَطُّ إلى القيام بأكثر من التحديق إلى عينيها والابتسام لها لتصير طوع أمره، أيًّا كان ما يطلبه منها. إنها تتحيَّز له دومًا».»

فكرت إيدي مرة أخرى في يوم الإثنين الذي تلا الحفلة، عندما وقف ثلاثتهم عند بوابة المدرسة، وكانت نظرة عينَي رايان مثبتة على عينيها. قال لها: «عليكِ أن تخبريهم يا إي. عليكِ أن تخبريهم أن هذا ليس صحيحًا.» حينئذٍ أدار جيك رأسه بعيدًا. انقطع التواصل بين جيك ورايان بعد ذلك لعدة أشهر. ولم يتحدث إيدي وجيك قَطُّ عن التحول الذي طرأ على علاقة جيك برايان. وكلما طرح جيك هذا الموضوع، أغلقت إيدي باب الحديث فيه. كانت تقول له: «لا أريد أن أعرف ما حدث، إنه أمر يخصكما وحدكما. لا أريد التدخل فيما بينكما.»

قالت إيدي وهي ترمق لارا بأقسى نظرة لديها: «أنت مخطئة.» وتابعت: «لم أكن دومًا متحيزة له. فقبل أن تخبريني بقصتك التافهة، كنت أظن أن رايان هو الذي ارتكب جريمة القتل.»

مشت لارا نحو المطبخ مرة أخرى، وكان كعباها يصدران صوت طقطقة على الأرضية الخرسانية.

صاحت إيدي قائلة بصوتٍ عالٍ ليصل إلى لارا: «لكنني كنت مخطئة في ظني هذا، أليس كذلك؟ فرايان بريء، تمامًا كما كان جيك. لم يفعل جيك أي شيء لك!»

عادت لارا للوقوف مرة أخرى إلى جانب إيدي وأمسكتها من كتفها. وقالت: «أي شيء؟» وبينما كانت تتحرك لارا، لاحظت إيدي بريق شيء معدني كانت ممسكة به في يدها، وذلك قبل ثوانٍ من شعورها بنصل أداة معدنية على عنقها. قالت لارا هامسة في أذن إيدي على نحوٍ غاضبٍ: «كان يعلم. كان يعلم ما فعله رايان. كان يعلم، وأنت أيضًا كنتِ تعلمين.»

الفصل الثامن عشر

ساد الهدوء بعد العاصفة. الهدوء التام.

كان الظلام لا يزال حالًّا بالخارج، ولكن إيدي تمكَّنت بفضل الضوء المنبعث من المنزل من رؤية رذاذ المطر الخفيف وهو يتساقط. جلست على الكرسي، ويداها مكبَّلتان خلف ظهرها، وأخذت تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تمنع نفسها من الارتجاف، وأن توقف اصطكاك أسنانها، وأن تمنع جسدها من الارتعاش من شدة الخوف. لم تستطع سماع أي شيء سوى صوت أنفاس لارا في أذنها، ولم تشعر إلا بوقع النصل المعدني البارد على عنقها.

همست لارا قائلة: «اعترفي.» وتابعت: «كل ما أطلبه منكِ هو اعتراف بأنك تعرفين ما فعله رايان. اعترفي بذلك، وربما سيجعلني اعترافك أشفق عليكِ.» أغمضت إيدي عينيها. وابتلعت ريقها وشعرت بالنصل يضغط بقوة أكبر على عنقها. أضافت لارا: «لقد اعترف جيك بهذا.» شهقت إيدي عندما شعرت بالنصل المعدني يخدش جلدها، ثم فجأة اختفى الضغط من على عنقها.

فتحت إيدي عينيها وأخذت نفسًا عميقًا. كانت لارا لا تزال خارج مجال رؤية إيدي، لكن إيدي كانت تشعر بوجودها؛ إذ شعرت بها واقفة خلفها مباشرة، وتخيلت شكلها وهي ممسكة بالأداة المعدنية في يدها.

قالت لارا بصوتٍ أجش، كأنها كانت على وشك البكاء: «راسلني جيك عبر الواتساب مرة أخرى بعد ليلتين من هجركِ له. وطلب مني القدوم لرؤيته. وتكبدت عناء قيادة سيارتي كل تلك المسافة حتى وصلت إلى هنا، لأجده يُسمعني اعتذاراته مرة أخرى وهو مخمور.» ثم أضافت: «سألته مجددًا عن السبب الذي منعه من التكلم حينئذٍ ...» توقفَت لحظة عن الكلام، وتنحنحت. ثم قالت: «أجابني بأنه لم يكن يريد تدمير حياة رايان.

وقال إنهما تصرَّفا على نحوٍ غير ناضج؛ فقد كانا مراهقَين في نهاية الأمر. وقال إنه كان يشعر بـ «الأسف البالغ»، بيد أنه كان يعلم أنه إذا قال الحقيقة بشأن ما فعله رايان، فلن تسامحيه أبدًا. وأن ذلك كان سيؤدي إلى فقده كليكما. لذلك فإنه، بدافع ولائه لرايان وحبه لك، اختار أن يدمر حياتي أنا.»

عضت إيدي شفتها، وامتلأت عيناها بالدموع. وصف لارا ينطبق على جيك بالضبط، أليس كذلك؟ لقد كان مخلصًا لرايان وواهبًا نفسه لها. ولخص قولها علاقة ثلاثتهم بأكملها. لقد كانت تجمعهم علاقة خاصة جدًّا. لم يهممهم كثيرًا أي شخص خارج رابطتهم المقدسة. بل إن أي شخص خارج هذه الرابطة يكاد يكون غير مرئي بالنسبة إليهم! وعلى الرغم من أن جيك قد كفر بقداسة هذه الرابطة في آخر المطاف، فإنه بالتأكيد كان مؤمنًا بها في الماضي.

قالت لارا مرة أخرى: «اعترفي يا إيدي»، ولكن صوتها كان أكثر حدة هذه المرة، ربما بسبب التعب أو التوتر. وأضافت: «لا أريد سوى أن أسمعك تنطقين بالحقيقة.»

أخذت إيدي نفسًا عميقًا. وقالت: «فلنفترض أنني فعلت ذلك. فلنفترض أنني اعترفت بكل ما تريدين مني أن أعترف به. ماذا بعد؟ ما الذي سيحدث بعد ذلك يا لارا؟ ليس لديك طريقة للخروج من هذا المأزق. هلا أخبرك عما سيحدث بعد ذلك؟ ستدخلين السجن. إما ذلك وإما ستكونين مضطرةً إلى التخلص مني، كما فعلتِ بجيك. ولكن هذه المرة لن يتبقَّى أحدٌ لتلقِّي عليه التهمة، أليس كذلك؟ أيًّا كان ما سيحدث، فنهايتك ستكون مأساوية.»

شعرت إيدي بالنصل على عنقها مرة أخرى. قالت لارا بصوتٍ هادئ: «ربما يستحق التخلص منكِ تكبُّد كل تلك المشاق.» أغمضت إيدي عينيها، وعضَّت بقوة أكبر شفتها السفلية. وارتفع صوت لارا وقالت: «أو ربما، يمكننا أنا وأنتِ أن نعقد صفقة. صفقتي تقتضي منكِ الاعتذار لي، وطلب الصفح مني، ثم تركي أرحل من هنا ...»

شهقت إيدي وقالت: «لماذا؟»، وكان جسدها كله يرتجف، وشعرت بالنصل على عنقها ينزلق نحو عظمة الترقوة. وأضافت: «ما الذي قد يدفعني إلى قبول تلك الصفقة؟»

قالت لارا: «من أجل رايان.» وجَّهت النصل بزاوية إلى رقبة إيدي ثم سحبته بعيدًا بحدة، فتسبَّبت في خدش جلدها. صرخت إيدي بأعلى صوت وهي تتلوى محاولةً فك قيودها.

صرخت قائلة: «ماذا تقصدين؟ ماذا تقصدين بقولك من أجل رايان؟»

لفَّت لارا حول الكرسي ووقفت أمام إيدي، ويداها خلف ظهرها. وبدت مستغرقة في التفكير. وقالت: «ماذا لو أخبرتك أن في حوزتي دليلًا من شأنه أن يثير شكوكًا منطقية

تحُول دون إدانة النيابة لرايان في القضية؟ ماذا لو كان لديَّ مقطع فيديو، على سبيل المثال – لكنه لا يُظهِر وجه القاتل – يمكن أن يُثبِت أن القاتل الحقيقي كان بالتأكيد ذا بنية جسدية أصغر حجمًا وأخف وزنًا من رايان بيرس؟»

هزَّت إيدي رأسها. وقالت: «أنتِ مجنونة لا محالة، أتعلمين ذلك؟ قتلتِ زوجي. ثم ألصقتِ تهمة قتله بأعز صديق له. وبعدئذٍ قمتِ بتقييدي وتعذيبي. والآن تخبرينني بأنكِ ستساعدين في إطلاق سراح رايان؟ أتظنينني غبية؟»

هزَّت لارا كتفَيها. وقالت: «لن يهم ذلك لأنني سأكون قد حصلت بالفعل على ما أردت. سأكون قد سمعتكِ تقولين ما كنت أنتظر منكِ أن تقوليه منذ خمسة عشر عامًا. سأكون قد عاقبتك. سأكون قد حوَّلت حياتكِ إلى جحيم، وحياة رايان أيضًا. لن تجرئي على نسياني بعد ذلك ما حييتِ.»

التفتت لارا لتنظر إلى البحر، وبينما كانت تفعل ذلك، رأت إيدي أنها تحمل في يدها مقص المطبخ. مقص المطبخ! بمجرد أن رأت المقص، بدأ خوف إيدي يتلاشى. لقد تبيَّنت أن لارا لم تكن تنوي قتلها! فليس من المعقول أن تختار ذبحها بمقص في حين أنه يوجد بالمنزل سكاكين حادة.

استطاعت إيدي أن ترى خلف لارا، وخلف النافذة والحديقة، خطًّا رماديًّا باهتًا في الأفق. ها قد أتى الصباح. ولقد خرجت من هذه الليلة سالمة.

قالت إيدي: «حسنًا.»

استدارت لارا، وتقدمت نحوها ممسكة بقوة بالمقص في يدها اليمنى ثم سألتها: «حسنًا؟»

قالت إيدي بنبرة تحدٍّ وهي ترفع ذقنها وتكشف عنقها: «حسنًا. سأقبل صفقتكِ». لم يكن لدى إيدي أي نية لقبول «صفقة» لارا، لكنها صارت مطمئنة بعدما تأكدت أن لارا لن تقتلها. كانت متأكدة من أنه على الرغم من تخطيط لارا المحكم، فإنه لم يكن لديها مخرج. وتيقنت إيدي بأنها ستفوز في النهاية.

سألت إيدي: «هلا ننتقل إلى الخارج؟ هل يمكننا فعل ذلك من فضلك؟ أشعر بألمٍ شديدٍ. سأجيب عن أسئلتك. لكن هلَّا تسمحين لي فقط بأن أنهض من على هذا الكرسي وأتمشى في المكان، رجاءً؟»

نظرت لارا إليها من أعلى إلى أسفل، متفحصة ملابسها الخفيفة، وحذاءها العالي الرقبة الرث من ماركة «أج». نظرت مرة أخرى إلى الظلام في الخارج. كانت منهمكة في

التفكير في الاحتمالات. وراهنت على أن إيدي لن تقدِم على الهرب وهي مرتدية مثل تلك الملابس، وفي غياب الضوء الكافي. لكن لارا لم تكن تعرف أن إيدي قد حفظت الطرق في الغابات المحيطة عن ظهر قلب، ولم تكن مدركة لمدى معرفتها بمساراتها ودروبها. ولم تعرف أن إيدي، بعد الأشهر القليلة الماضية التي قضتها هنا، قد تكون قادرة على العثور على طريقٍ مختصرٍ عبر الأشجار يوصلها إلى الطريق العمومي، رغم الظلام.

حبست إيدي أنفاسها برهة. ثم كررت طلبها قائلة: «رجاءً؟»

أومأت لارا باقتضاب. ودارت حول الكرسي ثم قصَّت الأصفاد التي كانت تقيد يدَي إيدي بها. مالت إيدي إلى الأمام، وانحنى ظهرها. وبدا أن الألم الحارق في كتفها يزداد سوءًا قبل أن يغمرها طوفان هائل من الشعور بالراحة من هذا الألم. طوت جسدها، واحتضنت ركبتَيها بين ذراعيها حتى ترخي ظهرها. استراحت لحظة قبل أن تمسك لارا بذراعها، وتسحبها بشدة للوقوف.

كان الجو باردًا جدًّا في الخارج، والهواء مثقلًا بالرطوبة. وقفتا جنبًا إلى جنب في فناء المنزل، والبخار يخرج من فميهما وهما تتنفَّسان، وللحظةٍ كان من الممكن أن تقرِّرا أن تصبحا صديقتين مرة أخرى. أفلتت لارا ذراع إيدي. وخرجت من الفناء، وترنَّحت قليلًا بينما غاص كعباها في العشب. خطت بضع خطوات نحو الجرف. وكانت لا تزال ممسكة بالمقص في يدها، والذي بدا مقبضاه البرتقاليان الزاهيان كإشارة ضوئية تحت سماء غائمة.

نظرت إيدي إلى الخلف نظرة خاطفة. فكرت أنها إنْ هربت عن طريق المرور عبر المنزل، فسيمكنها حينئذٍ أن تغلق الباب الأمامي خلفها، مما سيكسبها بعض الوقت. ولكن كان عليها أن تتمهل قبل القيام بذلك. فكلما زاد الضوء، زادت فرصها في الهروب بنجاح.

سألت إيدي لارا: «كيف عرفتِ؟» ثم أضافت: «كيف عرفتِ أنني استمعت إلى قصتك، وأنني رأيت صورتَيك على جهاز الكمبيوتر الخاص بجيك؟ كيف عرفت كل ذلك؟»

التفتت لارا لمواجهتها، وشعرها يتطاير على وجهها. أزاحت شعرها بعيدًا عن وجهها. وأجابت: «قبل تأسيسي لعملي الحالي، عملت في مجال تكنولوجيا المعلومات لسنوات. أنا أعرف كل شيء عن برامج التجسس. لم يستغرق الأمر مني سوى خمس دقائق تقريبًا لأضع برنامج تجسس على هاتفك، وجهاز الكمبيوتر الخاص بك، وجهاز الكمبيوتر الخاص بجيك أيضًا. ومنذ أن زرت منزلك للمرة الأولى، صارت لديَّ إمكانية الاطلاع على كل ضغطة ضغطتها على كل زر من أزرار أجهزتك، وكل رقم طلبته، وكل تطبيق فتحته. طوال هذا الوقت، كنت أراقب، وأنتظر اللحظة المناسبة.»

استدارت ومشت بعيدًا آخذة خطوة أخرى في اتجاه الجرف. قالت لارا: «عندما انتهى الأمر، نزلت إلى هناك.» وأشارت إلى حافة الجرف. تابعت: «كان المد قد انحسر. وركضت بطول الشاطئ، حتى وصلت إلى اللسان.» اتخذت إيدي بضع خطوات نحوها. وشعرت بالعشب المشرب بالمياه ينسحق تحت حذائها، وتسرَّب الماء المتجمد من خلال قماش حذائها. قالت لارا: «غسلت دمه من عليَّ في البحر، ثم صعدت مرة أخرى إلى الطريق.»

كانت لارا تتحدث عن قتلها لجيك. سألت إيدي: «هل كنتِ تشعرين بأي شيء في أثناء قيامكِ بذلك؟ أي شيء على الإطلاق؟»

رأت لارا تتجه نحوها تحت ضوء الشمس الضعيف. كانت بالكاد تستطيع أن ترى شكل جسدها، وبياض عينيها. أجابت لارا: «شعرتُ بالأسف. وشعرتُ بالخوف. اعتقدتُ أنني بهذا كتبتُ نهاية قصتي. وأنني دمرتُ حياتي بيدي. دمرتها «مرة أخرى». وأنه لم يكن ينبغي لي أن أدمر حياتي مرة أخرى. لم يكن ينبغي لي أن أضيع نفسي هباءً بهذا الشكل. ولكن ماذا كان عساي أن أفعل؟ بمجرد أن رأيتك، لم أستطع إخراجك من رأسي. لم أستطع التوقف عن التفكير فيما فعلتِه بي، وفي مدى عدم اكتراثك بالأمر، ومدى ضآلتي بالنسبة إليكِ. فكرت في مدى السهولة التي تجاهلتِ بها ألمي. لأنكِ اعتقدت أنك وصديقَيك أفضل مني، وأهم مني.»

ردَّت إيدي بحدة قائلة: «كنا أهم منكِ. وما زلنا كذلك. وسنظل كذلك إلى الأبد.» اندفعت موجة من الحرارة عبر جسدها، وبدأت بالصياح بأعلى صوتها. وقالت: «هل ظننتِ حقًّا أنني سأطلب منك الصفح؟ أنني سأعقد «صفقة» معك؟ لا أشعر بذرة ندم واحدة على ما فعلت. وإن تكرر الموقف فسأفعل نفس الشيء بالضبط مرة أخرى. أنا لم أرَ أحدًا يعتدي عليكِ. لم أرَ أحدًا يؤذيكِ. أتعرفين ماذا رأيت؟ رأيت فتاة مخمورة ذات مظهر فوضوي تنورتها مرفوعة حول سروالها الداخلي. فتاة رافقت كل الشباب في صفِّنا واحدًا تلو الآخر، وقررت رمي شِباكها مرة أخرى لتصيد الشاب التالي. فتاة ربما حدث لها أكثر مما كانت تتوقعه.»

فغرت لارا فاها. وبكت بلا صوت. قالت: «كيف يمكنكِ أن تقولي مثل هذه الأشياء؟ كيف يمكن أن يصل عماكِ إلى هذا الحد؟»

ردَّت إيدي بحنق: «أنا لست عمياء على الإطلاق! كنت أعلم بحدوث تجاوزٍ ما. وأخبرني حدسي أن رايان قد ارتكب هذا التجاوز. واخترته رغم ذلك. آثرت اختيارهما رغم ذلك. هل كنتِ تتوقعين مني أن أدمر صداقتي معهما من أجلك؟ أكان من المفترض

أن أنحاز إليك بدلًا من الوقوف بجانبهما لمجرد أنك فتاة مثلي؟» هزَّت رأسها. وقالت: «أمِن المفترض أن أقف بجانبك من منطلق أننا ننتمي إلى نفس النوع؟ لم أقتنع قَطُّ بهذا الهُراء. لم أقف في صفك حينئذٍ، ولن أفعل ذلك الآن. وإنْ أتيحت لي الفرصة مرة أخرى، فسأفعل نفس الشيء تمامًا. سأغض الطرف عما حدث.» اندفعت نحو لارا، وكوَّرت قبضتيها بجانبها. وقالت: «لو عاد بي الزمن لاخترت أن أدمركِ مرة أخرى بلا أي تردد.»

أصدرت لارا صوتًا. بدا كأنها أطلقت ضحكة أو صيحة شبيهة بصوت النوارس. تراجعت إلى الوراء ورأتها إيدي تتعثَّر، وغُرِز كعب حذائها في الأرض الموحلة. حاولت أن تحرر كعب حذائها، فانزلقت جانبًا في الوحل. طار المقص من يدها عندما سقطت على جانبها، وتمسكت بقوة بالعشب بينما كانت تحاول سحب نفسها بعيدًا عن حافة الجرف.

اندفعت إيدي بقوة نحوها. جثمت على الأرض، والتقطت المقص ورفعته ثم أنزلته بكل قوتها لتطعن ظهر يد لارا. صرخت لارا من شدة الألم، وأخذت تزحف بعيدًا عن إيدي، ثم جرَّت نفسها بالاتكاء على ركبتيها. نظرت إلى إيدي، وكان وجهها ملطخًا بالطين والدموع، ولم تشعر إيدي نحوها بأي شفقة، أو بأي ذرة رأفة. اندفعت مرة أخرى، موجهة المقص نحو رقبة لارا. سقطت لارا إلى الوراء، ورفعت ذراعيها للدفاع عن نفسها. سقطت إيدي هي الأخرى ولكن إلى الأمام. كانت كلتاهما تزحفان بشق الأنفس في الوحل، تحاولان باستماتة الوقوف على قدمَيهما عندما بدأت الأرض تحتهما بالانهيار.

خاتمة

لندن، يونيو
بعد ثمانية عشر شهرًا

لم تستطع الإنصات إلى أفكارها. وومضت الأضواء أمام عينيها فأعمتها. رأت الناس يلوِّحون لها، ويصيحون، وينادون اسمها، وأتت أصوات من كل اتجاه تنادي: «لويز! لويز! هل يمكنك أن تنظري إلى هذه الناحية، يا لويز؟» استدارت نحو مصدر أعلى صوت استطاعت سماعه، وكادت تتعثَّر بطرف ثوبها وهي تفعل ذلك. لكن ابتسامتها ظلَّت ثابتة، ولم تختفِ ولو لثانية. وعلى بُعد اثنتي عشرة ياردة أمامها، رأت إيدي. كانت ترتدي فستانًا قصيرًا أسود ومزينًا بالترتر، وكانت ساقاها الرياضيتان ظاهرتَين. كان الناس ينادونها أيضًا، وكانت تبتسم ابتسامةً عريضة. نظرت خلفها باتجاه لارا وغمزت لها.

(لم تكن تلك إيدي الحقيقية، بالطبع، فهي مجرد امرأة تشبه قليلًا إيدي — بيد أنها نسخة أصغر سنًّا وأجمل وأكثر «حيوية» من إيدي.)

مرَّ ثمانية عشر شهرًا منذ ذلك الصباح على الجرف. أدين رايان بقتل جيك. وجرى تجاهل ادعاءاته بشأن خيانة جيك، التي لم يتمكَّن من تقديم أي دليل عليها على الإطلاق. وجرى التعامل مع قوله بأن وفاة إيدي لم تكن نتيجة انتحار على أنه محض ضلالات ناتجة عن ريبة مرضية. فلقد أرسلت إيدي رسالة بريد إلكتروني إلى نيتا بادامي في الصباح الذي ألقت فيه بنفسها من فوق الجرف. أوضحت في رسالتها أنها لا تستطيع الاستمرار، وأن كل الديون والوحدة والأسى فاقت قدرة تحمُّلها.

تحت أضواء العرض الأول للفيلم في ميدان ليستر، وفي خضمِّ صخبه، مدَّت الممثلة التي تشبه إيدي يدها ذات الأظافر المطلية بأناقة وأشارت إلى لارا (المعروفة الآن أيضًا

بكاتبة السيناريو لويز جرانت) لكي تأتي وتقف بجانبها. ذهبت إليها لارا وتعانقتا، وقبَّلتا بعضهما بعضًا بحرارة على الخدَّين. دخلتا قاعة السينما معًا، يدًا بيد، ومرَّتا معًا تحت اللافتة الإعلانية المتوهجة التي كُتِب عليها بأحرف كبيرة وعريضة:

«العرض العالمي الأول لفيلم «مكان خاص في الجحيم».»


هنداوي